التربية الإسلامية

الدكتور يوسف القرضاوي

التربية الإسلامية
ومدرسة حسن البنّا

الدكتور يوسف القرضاوي

شناسنامه کتاب

نام کتاب : التربية الاسلاميه

مؤلف : الدکتور یوسف القرضاوی

تیراژ : ۴۰۰۰ جلد

ناشر : نشر ادب

نوبت چاپ : اول

تاریخ انتشار : بهار ۱۳۷۱

چاپ : نهضت ـ قم

قیمت ۳۰۰ ریال

التربية الإسلاميّة

ومدرسة حسن البنّا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

أرأيت إلى الأرض الخاشعة الهامدة، ينزل الله عليها الماء، فتهتز وتربو وتحيا بعد موتها، وتنبت من كل زوج بهيج؟

كذلك كانت الأمة الإسلامية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري، وقبل ظهور حركة الإخوان المسلمين: دمرت الخلافة، وهي آخر مظهر للتجمع تحت راية العقيدة الإسلامية، ومُزّق الوطن الإسلامي شر ممزق بين براثن المستعمرين، من بريطانيين وفرنسيين وغيرهم، حتى هولندا، التي لم تكن تتجاوز بضعة ملايين، كانت تحكم نحو مائة مليون في أندونيسيا! وعُطّلت أحكام الإسلام، واتخذ القرآن مهجوراً، وسيطرت القوانين الوضعية والتقاليد الغربية، والقيم الأجنبية على حياة المسلمين، وبخاصة الطبقة المثقفة منهم، نتيجة لهيمنة الإستعمار الكافر على أزمة التعليم والتوجيه والتأثير، فتخرجت أجيال، تحمل أسماء إسلامية، وعقولاً أوروبية.

وانضم هذا الفساد الذي وفد مع الاستعمار الدخيل، إلى الفساد الذي خلفته عصور الانحطاط والتخلف، فازداد الطين بلة، والداء علة.

وشاء الله الذي تكفل بحفظ القرآن، وبقاء الإسلام، وإظهاره على الدين كله، أن يجدد لهذا الدين شبابه، ويعيد لجسد هذه الأمة الهامد روحه وحياته من جديد. فكانت دعوة الإخوان المسلمين، وكان حسن البنا مؤسس هذه الحركة «الكبرى»، التي مضى عليها خمسون عاماً، تركت فيها «بصمات» وآثاراً في كل مجال وفي كل مكان، داخل العالم الإسلامي وخارجه.

ولست أكتب هذه الصحائف مؤرخاً لحركة الإخوان، ومبلغ تأثيرها في الحياة المصرية والعربية والإسلامية، فهذا جهد ينوء به فرد مهما تكن قدرته ووسائله، وإنما هو واجب الجماعة التي فرطت فيه حتى اليوم، وإن كانت الضربات المتلاحقة التي أصابت الجماعة في كل العهود، تجعل لها بعض العذر لا كلّه.

إنما أكتب هنا عن جانب واحد من جوانب هذه الحركة الضخمة، وهو: جانب التربية، كما فهمه الإخوان من الإسلام، وكما طبقوه.

ولست أحاول هنا الإستقصاء والإحاطة، وإنما أكتفي بإبراز المعالم، وإعطاء الملامح، التي تكفي لإيضاح فكرة الجماعة عن التربية، وجهودها في ممارستها، ونقلها إلى واقع حي يتمثل في بشر أحياء.

ولا يخفى على دارس أو مراقب أن حركة الإخوان تمثل- في الدرجة الأولى- مدرسة نموذجية ناجحة للتربية الإسلامية الحقة، وأن

أهم ما حققته هو تكوين جيل مسلم جديد، يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، ويؤمن به إيماناً عميقاً، ويعمل به في نفسه وأهله وجهاداً لإعلاء كلمته، وتحكيم شريعته، وتوحيد أمته.

وقد ساعد على هذا النجاح جملة عوامل:

١- إيمان لا يتزعزع بأن التربية هي الوسيلة الفذة لتغيير المجتمع، وبناء الرجال، وتحقيق الآمال. وكان إمام الجماعة الشهيد حسن البنا يعلم أن طريق التربية بعيدة الشقة، طويلة المراحل، كثيرة المشاق، ولا يصبر على طولها ومتاعبها إلا القليل من الناس من أولي العزم. ولكنه كان يعلم كذلك علم اليقين، أنها وحدها الطريق الموصلة. لا طريق غيرها، فلا بديل لها، ولا غنى عنها. وهي الطريق التي سلكها النبي ﷺ، فكون بها الجيل الرباني النموذجي، الذي لم تر عين الدنيا مثله، والذي تولى بعد ذلك تربية الشعوب وقيادتها إلى الحق والخير.

٢- منهاج للتربية محدد الأهداف، واضح الخطوات، معلوم المصادر، متكامل الجوانب، متنوع الأساليب، قائم على فلسفة بينة المفاهيم، مستمدة من الإسلام دون سواه.

٣- جو جماعي إيجابي هي ءاته الجماعة، من شأنه أن يعين كل أخ مسلم على أن يحيا حياة إسلامية، عن طريق الإيحاء والقدوة والمشاركة الوجدانية والعملية، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه،

ضعيف بمفرده قوي بجماعته، فالجماعة قوة على الخير والطاعة، وعصمت من الشر والمعصية: «يد الله مع الجماعة»، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية».

٤ـ قائد مرب بفطرته، وبثقافته، وبخبرته، وهبه الله شحنة إيمانية نفسية غير معتادة، أثرت في قلوب من اتصل به، وأفاض من قلبه على قلوب من حوله، وكان أشبه بـ «المولد» أو «الدينامو»، الذي ملأ منه الآخرون «بطاريات» قلوبهم. والكلام إذا خرج من القلب دخل القلوب بغير إستئذان، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان. فصاحب القلب الحي، هو الذي يؤثر في مستمعيه ومريديه، أما صاحب القلب الميت، فلا يستطيع أن يُحيي قلب غيره، ففاقد الشيء لا يعطيه، وليست النائمة كالثكلى.

٥ـ عدد من المربين المخلصين، الأقوياء الأمناء، آمنوا بطريقة القائد، ونسجوا على منواله، أثروا في تلاميذهم، ثم أصبح هؤلاء أساتذة لمن بعدهم.. وهكذا.

ولست أعني بالمربين هنا: خريجي المعاهد العليا للتربية، أو حَمَلَة الماجستير والدكتوراة فيها، وإنما أعني أناساً ذوي «شحنة» عالية من الإيمان، وقوة الروح، وصفاء النفس، وصلابة الإرادة، وسعة العاطفة، والقدرة على التأثير في الآخيرين.. وربما كان أحد هؤلاء مهندساً، أو موظفاً بسيطاً، أو تاجراً، أو عاملاً، ممن لا علاقة له بدراسة أصول التربية أو مناهجها.

٦ـ وسائل مرنة متنوعة، بعضها فردي، وبعضها جماعي، وبعضها نظري، وبعضها عملي، بعضها عقلي، وبعضها عاطفي، بعضها إيجابي، وبعضها سلبي، من دروس، إلى خطب، إلى محاضرات، إلى ندوات؛ إلى أحاديث فردية، ومن شعارات تحفظ، إلى هتافات تدوّي، إلى أناشيد تؤثر بكلماتها ولحنها ونغمها.. ومن لقاءات دورية لمجموعات مختارة في البيوت، على القراءة والثقافة والعبادة والأخوة، سميت كل مجموعة منها «أسرة» إيحاء بمعنى الألفة والمودة بين أبناء العائلة الواحدة، إلى لقاءات أخرى في شعبة الجماعة غالباً، موعدها الليل، تتجدد فيها العقول وسميت هذه «الكتيبة» إيحاء بمعنى الجهاد، إلى غير ذلك من الوسائل والطرائق التي تهدف إلى بناء الإنسان المسلم المتكامل.

وكل تربية إنما تتكيف بحسب الغاية منها، حتى في الحيوانات، فالبقرة التي تربى للبن، غير التي تربى اللحم، غير التي تربى للحرث.

وكذلك الإنسان والتربية. فتربية الإنسان الوجودي، غير تربية الإنسان الشيوعي، وهما غير تربية الإنسان البورجوازي، أو الرأسمالي، وكلها غير تربية الإنسان المسلم. وتربية المسلم التقليدي، غير تربية المسلم الإيجابي.. تربية المسلم في مجتمع يحكمه القرآن، وتسيطر عليه تعاليم الإسلام، غير تربية المسلم في مجتمعات تصطرع فيها الجاهلية والإسلام، ويتنازعها الكفر والإيمان، والتحلل والإلتزام.

أجل! إن تربية المسلم الذي يكتفي من الإسلام بالصلاة والصيام والذكر والدعاء، وإذا ذكر أمامه حال الإسلام والمسلمين، اقتصر على الحوقلة والإسترجاع، غير تربية المسلم الذي يغلي صدره غيرة على الإسلام، كما يغلي القدر فوق النار، ويذوب قلبه أسى على المسلمين كما يذوب الملح في الماء، ثم يحول ذلك الأسى وتلك الغيرة إلى قوة دافعة للعمل، وانطلاقة باعثة على التغيير.

هذا هو المسلم المنشود، الذي لا يستسلم للواقع، بل يعمل على تغييره كما أمر الله، ولا يعتذر بالقضاء والقدر، بل يؤمن بأنه هو قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يرد. إنه المسلم الذي يعمل لإقامة رسالة، وبناء أمة، وإحياء حضارة.

«رسالة امتدت طولاً حتى شملت آماد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة»[1].

وأمة خصها الله بخير كتاب أنزل، وأعظم نبي أرسل، جعلها خير أمة أخرجت للناس، وجعلها أمة وسطاً في كل شيء، وأهّلها للأستاذية والشهادة على الناس.

وحضارة ربانية إنسانية عالمية أخلاقية، جمعت بين العلم

---

(١) من كلمات حسن البنا في مقاله: «من وحي حراء»، بجريدة «الإخوان المسلمون» اليومية.

والإيمان، ومزجت بين المادة والروح، ووازنت بين الدنيا والآخرة، وحفظت للإنسان خصائص الإنسان خصائص الإنسان، وكرامة الإنسان.

كانت تربية هذا المسلم هي المهمة الأولى لحركة الإخوان، لأنه هو وحده أساس التغيير، ومحور الصلاح والإصلاح. ولا أمل في استئناف حياة إسلامية، أو قيام دول إسلامية، أو تطبيق قوانين إسلامية ، بغيره.

وكان للتربية الإسلامية في فهم الإخوان وتطبيقهم خصائص بارزة، ومميزات ظاهرة أهمها: التأكيد على الربانية.. التكامل والشمول.. الإعتدال والتوازن.. الإيجابية والبناء.. الأخوة والروح الجماعية.. التميز والإستقلال. وسنحاول هنا أن نخص كلا منها بحديث، بقدر ما يتسع المقام.. وبالله التوفيق..

د. يوسف القرضاوي

* * *

الرَّبَّـانيـة

الجانب الرباني أو الإيماني في التربية الإسلامية ، كما فهمها الإخوان وطبقوها، هو أهم جوانب التربية وأشدها خطراً وأعمقها أثراً، وذلك لأن أول هدف للتربية الإسلامية، هو تكوين الإنسان المؤمن.

والإيمان في الإسلام ليس قولاً يقال ولا دعوى تدعى، إنما هو حقيقة يمتد شعاعها إلى العقل فيقتنع، وإلى العاطفة فتجيش، وإلى الإرادة فتتحرك وتحرك . إنه كما جاء في الأثر ـ ما وقر في القلب وصدقه العمل: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾[١]. ليس الإيمان في الإسلام مجرد معرفة ذهنية محضة، كمعرفة المتكلمين والفلاسفة، ولا مجرد تذوق روحي مجنح كتذوق المتصوفة، ولا مجرد سلوك تعبدي كسلوك النساك والمتزهدين. إنه مجموع هذا كله، سالماً من الشطط والإفراط والتفريط، مضافاً إليه إيجابية تعمر الأرض بالحق، وتملأ

---

(١) الحجرات: آية ١٥.

الحياة بالخير، وتقود الإنسان إلى الرشد.

لقد حاول الإخوان في تربيتهم، أن يجمعوا ما فوقه المتكلمون والصوفية والفقهاء ، من عناصر الإيمان الحق، وأن يجددوا ما أبلاه المسلمون في الأعصر الأخيرة من معاني الإيمان الحق، فعادوا إلى المنابع الصافية يستمدون منها حقيقة الإيمان ، الذي يجب أن يربى عليه الإخوان: إيمان بالكتاب العزيز والسنة المطهرة، بشعبه التي بلغت بضعاً وستين أو بضعاً وسبعين، وألف فيه الحافظ البيهقي كتاب «شعب الإيمان».

إيمان الصحابة ومن تبعهم بإحسان من سلف الأمة، الذين شمل إيمانهم اعتقاد القلب، وإقرار اللسان وعمل الجوارح، وصبغ إيمانهم حياتهم كلها في المسجد وفي البيت وفي المجتمع، في الخلوة والجلوة، وفي الليل والنهار، وفي العمل للدنيا، وفي العمل للآخرة. امتاز الإيمان في تربية الإخوان بهذا الإمتداد، وبهذا العمق، وإمتاز كذلك بحيويته النابضة، وقوته الدافعة، وحركته الفعالة، إنه شعلة تتأجج، وتيار يتدفق، ونور يضيء، ونار تحرق.

وعماد التربية الربانية، هو القلب الحي الموصول بالله تبارك وتعالى، الموقن بلقائه وحسابه، الراجي لرحمته، الخائف من عقابه، فحقيقة الإنسان ليست في هيكله المادي، والأجهزة والخلايا والعظام والعضلات، إنما هي في تلك اللطيفة الربانية التي تسكن هذا الهيكل، وتحركه وتأمره وتنهاه، إنها المضغة التي إذا صلحت ، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

القلب أو الروح أو الفؤاد ـ سمه ما شئت ـ هو ذلك الكائن الواعي الذي يصل الإنسان بأعماق الحياة، وأسرار الوجود، وينتقل به من الأرض إلى السماء، ومن الكون إلى المكون، ومن عالم الفناء إلى عالم الخلود.

القلب الحي، هو موضع نظر الله تعالى، ومهبط تجلياته وأنواره: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»، وهو المستند الوحيد الذي يقدمه العبد لربه يوم القيامة وسيلة للنجاة: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1]، وبدون هذا القلب العامر بالإيمان، المشرق باليقين، يكون الإنسان ميتاً، وإن عده الإحصاء في الأحياء: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[2].

من أجل هذا، عمدت التربية الإخوانية إلى إحياء القلوب حتى لا تموت، وعمارتها حتى لا تخرب، وترقيقها حتى لا تقسو، فإن قسوة القلب وجمود العين، عقوبة يستعاذ بالله من شرها، ولهذا ذم الله بني إسرائيل فقال: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية﴾[3]. وفي موضع آخر خاطبهم فقال: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾[4]. وعاتب الله أهل الإيمان

---

(١) الشعراء: ٨٨ـ ٨٩.

(٢) الأنعام: آية ١٢٢.

(٣) المائدة: آية ١٣.

(٤) البقرة: آية ٧٤.

فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾[1].

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع. وكانت رسائل الأستاذ البنا، ومقالاته وأحاديثه العامة في المركز العام، والخاصة في لقاءات الأسر والكتائب والشعب، دائمة الطرق لأبواب القلب الإنساني، حتى يتفتح على معرفة الله، ويرجوه ويخشاه، وينيب إليه ويتوكل عليه، ويوقن بما عنده، ويأنس بحبه والرضا عنه، ويسكن إلى قربه، ويطمئن بذكره ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2].

بهذا يبتسهل القلب المؤمن الصعب، ويستمرىء المر، ويستعذب العذاب، ويستهين بالمتاعب والمشقات، بل يستلذها ما دامت لله وفي سبيل الله، كما يستلذ كل محب متاعب رحلته وينسى جوعه وظمأه، إذا كانت الغاية والعاقبة لقاء الحبيب، على نحو ما ذكر ابن القيم رحمه الله:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها
عن الطعام وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أو عدها
روح القدوم فتحيا عند ميعاد

(١) الحديد: آية١٦.
(٢) الرعد: آية ٢٨.

وقلب الإنسان كجسمه يحتاج إلى ثلاثة أشياء:

(أ) إلى وقاية ليسلم.

(ب) وإلى غذاء ليحيا.

(جـ) وإلى علاج ليشفى.

وأول ما يجب وقاية القلب منه، وإعطاؤه المصل الواقي من شره، هو: حب الدنيا، فهو رأس كل خطيئة، وأصل كل داء، والمصل الواقي منه، هو اليقين بالآخرة، وتذكر مثوبة الله، والموازنة بين تفاهة ما عندنا، وعظمة ما عند الله - إن جازت الموازنة بين الفاني والباقي - ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[1].

وحسب المؤمن أن يقرأ هذه الموازنة أو المفاضلة صريحة واضحة في كتاب ربه: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد﴾[2].

وهناك وراء هذه الشهوات المادية - شهوات البطون والفروج وحب المال والبنين - ما هو أشد خطراً وهو شهوات القلوب، وأهواء النفوس، والهوى شر إله عبد في الأرض ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه

---

(١) النحل: آية٩٦.　　(٢) آل عمران: ١٤- ١٥.

بغير هدى من الله؟﴾[1].

شهوة الجاه وحب السيطرة، والتأله على خلق الله، وابتغاء الشهرة والمحمدة، والسعي وراء تصفيق العامة، أو تملق الخاصة، وما إلى ذلك هي الوباء القتال الذي يصيب القلوب فيعميها ويصمها، أو يوبقها ويقتلها، وهي التي سماها الإمام الغزالي في إحيائه: «المهلكات»، إهتداء بالحديث النبوي الذي قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

ومن المؤسف أن كثيرين لم يلتفتوا إلى هذه المهلكات المعنوية للأفراد والجماعات، ووجهوا كل اهتمامهم إلى المهلكات الظاهرة، من السرقة والزنى وشرب الخمر، وهي من الموبقات قطعاً، ولكنها أقل ضرراً، وأيسر خطراً.

والحقيقة أن وراء كل هذه الموبقات الحسية، داء نفسياً علمه من علمه وجهله من جهله. ومن ثم اهتمت الدعوة من أول يوم بتخليص النفوس من شوائبها الدنيوية، وجعلها لله قبل كل شيء، وقطع أطماع النفس عن كل مغنم أو مظهر دنيوي، لا يغني عند الله شيئاً، واتجهت إلى الربانية بكل قوتها، وعبأت لها الأفكار والمشاعر، كما هيأت لها المناخ والوسائل.

كان هذا الجانب الإيماني أو الرباني، يحتل في مناهج التربية

---

(١) القصص: آية ٥٠.

الإخوانية مساحة واسعة، وينال اهتماماً بالغاً، فالدعوة دعوة ربانية قبل كل شيء، والدعوات الربانية، إنما توجه وجهها إلى الله وحده، وتجعل رضاه غاية المراد:

إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

والله تعالى لا ينظر إلى الصور، ولكن إلى القلوب، ولا يجازي بحجم العمل الظاهر، ولكن بالإخلاص الذي وراءه. فالله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، وهو أغنى الأغنياء عن الشرك، والرياء هو الشرك الخفي. فهو سبحانه لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[1]. ولا غرو أن جعلت شعارها: «الله أكبر ولله الحمد»، وجعلت أول هتافاتها التي تلقنها لأتباعها، وتغرس بها في عقولهم وعواطفهم أهدافها ومفاهيمها الكبرى: الله غايتنا.

وفي رسالة التعاليم، يجعل الشهيد البنا الركن الثاني من أركان «البيعة»، بعد «الفهم» المنشود للإسلام في حدود «الأصول العشرين» المشهورة، هو «الإخلاص»، ويفسر الإخلاص بقوله: «أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده وجه الله تعالى، وابتغاء مرضاته،

---

(١) آخر سورة الكهف: آية ١١٠.

وحسن مثوبته، من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو تعب أو تقدم أو تأخر. وبذلك يكون جندي فكرة وعقيدة، لا جندي غرض ومنفعة ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أُمرت**﴾[1].

والعارفون بأمراض القلوب وآفات النفوس، يعلمون أن من أخطر ما يتعرض له المشتغلون بالدعوة، الإفتتان بالشهرة، والتطلع إلى الصدارة، وحب الظهور والزعامة. ولهذا حذر الرسول الكريم من حب الجاه والمال، ومن الشرك الخفي، وهو الرياء، ونوه القرآن والسنة بالمخلصين الذين يعملون ما يعملون. «إبتغاء وجه الله»، لا يريدون من أحد جزاء ولا شكوراً، وأشاد الرسول بالمسلم الإيجابي الصامت، الذي يؤدي واجبه وهو غامض في الناس، لا يشار إليه بالأصابع. وقال: «رب أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»، و«طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة»، ورحم الله خالداً سيف الله، الذي عمل قائداً فأحسن، وعمل جندياً فما فرط ولا قصر.

وقد أكد الإخوان في تربيتهم هذه المعاني، وحذروا كل التحذير من حب الظهور، الذي طالما قصم الظهور.

---

(١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

لقد كان من ثمرات هذه التربية، أن ظهر في الجماعة كثير من الجنود المجهولين، أو كما سماهم الحديث النبوي الذي رواه الترمذي: «الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا»، وأن وجدنا رجالاً فيهم قبس من الأنصار: يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع.

كم من رجال بذلوا من أموالهم وأنفسهم دون أن يذكروا أسماءهم، أو يقرعوا الطبول لأشخاصهم، وكم من شباب قاتلوا في فلسطين والقناة، وقدموا من روائع البطولات، دون أن يلتمسوا من أحد جزاء أو شكوراً، ودون أن يعلنوا عن أنفسهم، أو يذكروا ما صنعوه، خشية أن يحبط عملهم بالعجب أو الغرور.

وكان بعد ذلك على الحركة أن تعمل على غذاء القلوب بعد وقايتها. وغذاء القلوب إنما يتم بدوام الصلة بالله تعالى، والقيام بذكره وشكره وحسن عبادته.

من هنا كان من المقومات الأساسية التي قامت عليها التربية الربانية الإخوانية: العبادة لله تعالى. فهي الغاية الأولى من خلق المكلفين ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[1]. والعبادة ـ بالمعنى العام ـ، إسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، ولكنا نقصد به هنا العبادة بالمعنى الخاص، وهو التنسك والتقرب لله تعالى، بإقامة شعائره وذكره وشكره.

---

(١) الذاريات: آية ٥٦.

ومن العناصر **الأساسية** التي حرص الإخوان عليها في العبادة:

١ـ التزام السنة، واجتناب البدعة، فإن كل بدعة ضلالة، وقد ألف في هذا الأخ الجليل، الشيخ سيد سابق كتابه: «فقه السنة»، وقدم له الإمام الشهيد، وأثنى عليه. وقبل ذلك نشر فقرات منه في مجلة الإخوان الأسبوعية، والكتاب يعتمد على الأدلة الشرعية، ويمثل الإتجاه الفقهي للإخوان.

٢ـ الاهتمام بالفرائض، فإن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة. وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري: «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه»، فلا تهاون ولا تساهل في ترك الفريضة بحال.

٣ـ الترغيب في صلاة الجماعة، فهي إما فرض عين، أو فرض كفاية، أو سنة مؤكدة، على اختلاف المذاهب، ولهذا حين ذهب الإخوان إلى معتقل الطور، سرعان ما جعلوا في كل قسم منه مسجداً، يجتمعون فيه لكل صلاة، كما يؤدون فيه فريضة الجمعة، ولا زلت أذكر صوت الشيخ محمد الغزالي، وهو يؤمنا في كل صلاة، ويقنت في الركعة الأخيرة داعياً: «اللهم فك بقوتك أسرنا، وأجبر برحمتك كسرنا، وتول بعنايتك أمرنا. اللهم أستر عوراتنا، وآمن روعاتنا..».

٤ـ الترغيب في التطوع، ففي الحديث القدسي السابق «وما

يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. . ». وكم نشأ في رحاب هذه الدعوة رجال صوامون قوامون ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾[1]. وصفهم الناس كما وصفوا الصحافة وتابعيهم من قبل بأنهم: رهبان الليل وفرسان النهار. وقال شاعرهم بلسانهم في نشيد «هو الحق»، أو نشيد «الكتائب»، الذي يحفظه الجميع:

رفاق إذا ما الدجى زارنا
غمرنا محاريبنا بالحزن
وجند شداد، فمن رامنا
لبأس رأى أسداً لا تهن

وفي هذا، وضع الأستاذ المرشد رسالة «المناجاة»، بين فيها فضل التهجد والصلاة في الأسحار، ومنزلة الدعاء والإستغفار، وما ورد في ذلك من آيات وأحاديث وآثار. وطالما أشاد رحمه الله بمتعة التعبد في جوف الليل، والقيام لله والناس نائمون، والسهر في طاعته والناس في لهوهم غارقون، وبكاء الصالحين من خشية الله حيث يضحك المفرطون. وطالما تمثل بقول الشاعر في مناجاة ربه:

سهر العيون لغير وجهك باطل
وبكاؤهن لغير فقدك ضائع

(١) السجدة: آية ١٦.

وقول الآخر:

إن قلباً أنت ساكنه
غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا
يوم يأتي الناس بالحجج

أثرت هذه المعاني والتأكيد عليها في عقول الإخوان وقلوبهم، فنشأ جيل رباني يسهر ليله لله، ويظمىء نهاره لله، لا يمنعه برد الشتاء عن القيام، ولا هجير الصيف عن الصيام، لأنه يجد في عبادة ربه نشوة، وفي طاعته لذة، وفي الوقوف بين يديه سعادة، كتلك التي عبر عنها أحد الصالحين قديماً بقوله: لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف.

وما برحت أذكر صفوف المتهجدين في معتقل الطور، حيث كان يمر بعض الإخوان في الثلث الأخير من الليل، ينادي بصوت مؤثر:

يا نائماً مستغرقاً في المنام
قم فاذكر الحي الذي لا ينام
مولاك يدعوك إلى ذكره
وأنت مشغول بطيب المنام!

هناك يستيقظ النائم، ويخف المتثاقل، وينهض المتكاسل، ليتعرض لنفحات الله في هذا الهزيع المبارك من الليل، عسى أن تناله

بركة «المستغفرين بالأسحار».

إن مدرسة الليل ـ بما فيها من صلاة ودعاء وقرآن وترتيل، وبما تهيء للأرواح من زاد، وللقلوب من عتاد، هي التي تخرج المسلم الذي يحتمل أعباء الرسالة، وميراث النبوة، بقوة وأمانة، كما حملها النبي الكريم، الذي خاطبه الله منذ إشراقة الدعوة في عهدها المكي **﴿يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلاً. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**(١).

وفي هذه المدرسة، ـ مدرسة الليل والقرآن ـ، تخرج شباب ربانيون، أعادوا لنا سيرة السلف من جديد.. رأينا من هؤلاء الشباب الربانيين، من التزم الإثنين والخميس طوال حياته، نفعنا الله بهم، ومن ظل على هذه السنة، وهو في ميدان الجهاد، عملاً بقول النبي ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله، إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً». رواه البخاري وغيره.

ولقد أصيب مرة أحد هؤلا الإخوة المجاهدين في يوم صيامه، فجيء له وهو في النزع الأخير بشربة ماء، فقال لهم: دعوني، إني أريد أن ألقى ربي وأنا صائم!

٥ـ الترغيب في ذكر الله: فالله تعالى يقول: **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾**(٢). وخير

---

(١) المزمل: ١ـ٥.　　(٢) الأحزاب: ٤١ـ ٤٢.

الذكر تلاوة القرآن، كلام الله الحكيم، فلتاليه بكل حرف عشر حسنات. ومن وصايا الإخوان، أن يكون لكل أخ ورد يومي يتلوه من كتاب الله، وأن يحرص على حسن التلاوة، بمعرفة أحكام التجويد، وأن يقرأه بتدبر وتأمل، فلو أن قرآناً سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى، لكان هذا القرآن.

وأنواع الذكر وصيغه كثيرة منها: التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والدعاء، والإستغفار، والصلاة على النبي ﷺ.

وقد حرصت التربية الإخوانية، على التزام الذكر بالمأثور في هذا كله لعدة أمور:

١- إن الصيغ المأثورة، لا تدانيها صيغة أخرى، لا في مضمونها ولا في أسلوبها، فهي آية من آيات الله في الشمول، والبلاغة، والوضوح، وقوة التأثير. وهذا من بركات النبوة.

٢- إن كلام غير المعصوم، قد يدخله شيء من الغلو أو التقصير، وبهذا يكون عرضة للقيل والقال، ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

٣- إن في الذكر بالمأثور أجرين: أجر الذكر، وأجر الإتباع. ولا يليق بالعاقل أن يضيع أجر الإتباع بلا مسوغ.

ومن ثم، عُني الإمام الشهيد بوضع رسالة تشمل مجموعة من الأذكار والأدعية الواردة في السنة، سماها: «المأثورات»، اقتبسها

من مثل «الأذكار» للإمام النووي، و «الكلم الطيب»، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

ولا يكاد أخ من الإخوان، إلا وعنده هذه الرسالة، وقلَّ من لا يحفظها ويردد أذكارها صباح مساء. ومن الإخوة من اتخذ لنفسه وسيلة تذكره بكل دعاء في مناسبته. ففي غرفة النوم يعلق لوحة فيها أذكار النوم واليقظة، وفي حجرة الطعام يعلق أخرى فيها أدعية الأكل والشرب، وعند الباب دعاء الدخول والخروج، وفي سيارته دعاء الركوب، وهكذا..

ومن الوسائل التي ابتكرها الإخوان لإيقاظ الشعور الديني، وتنمية الوازع الذاتي، وتغليب النفس اللوامة على النفس الأمارة بالسوء: ما سمي بـ «جدول المحاسبة»، وهو جدول مطبوع يتضمن أسئلة موجهة من الإنسان إلى نفسه، وعليه أن يجيب عنها بـ«نعم»، أو «لا»، ليعرف مدى محافظته أو تقصيره. ويكون ذلك عندما يأوي إلى فراشه، ليتبين حصيلة يومه. وهذه المحاسبة تتم بينه وبين نفسه، لا رقيب عليه إلا الله تعالى.

من هذه الأسئلة:
هل أديت الصلوات في أوقاتها؟.
هل أديتها في جماعة؟.
هل تلوت وردك اليومي من القرآن؟.
هل قرأت أدعيتك المأثورة؟.

هل زرت أخاً لك في الله؟.. الخ.. الخ.

وكان من ثمرات هذه التربية الإيمانية الربانية، أن قدم الإخوان ما قدموا لأوطانهم، وفي سبيل دعوتهم، دون أن يمنوا على أحد، بل الله يمن عليهم أن هداهم للإيمان، وإن صُبّت عليهم سياط العذاب في محن متلاحقة، في عهد الملكية، ثم في عهد الناصرية (١٩٤٨، ١٩٥٤، ١٩٦٥)، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا. حتى أن منهم من نهشته الكلاب، ومن شوي ظهره بالحديد المحمى، ومن مزقت بدنه الكرابيج، ومن قضى في السجن عشرين عاماً كاملة في عهد الثورة، ومنهم من قتل جهرة ضرباً بالرصاص، كما في مذبحة ليمان طرة، ومنهم من قتل خفية ضرباً بالسياط، وهم عشرات يجب أن يماط عنهم اللثام، ويعرفهم التاريخ، ومنهم من حكم عليه بالإعدام شنقاً بغير حق، فلا هو كفر بعد إسلام، ولا هو زنى بعد إحصان، ولا هو قتل نفساً بغير نفس، كل ذنبه أن يقول: ربي الله، ودستوري القرآن!!

ليس العجب أن يذنب الإنسان، إنما العجب أن يتمادى في الذنوب ولا يتوب. وقد أذنب آدم فتاب الله عليه وغفر له ﴿وعصى آدم ربه فغوى. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾[1]. ولكن إبليس أذنب فلم يغفر له، لأنه لم يتب من ذنبه، ولم يعتذر إلى ربه، بل أبى واستكبر عن الخضوع للأمر، وقال: ﴿أنا خير منه، خلقتني من نار

(١) طه: ١٢١-١٢٢.

وخلقته من طين﴾[1] ، على حين قال آدم وزوجه : ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾[2].

كان ذنب آدم وزوجه نتيجة غفلة طارئة، وشهوة عارضة، أعقبتها توبة نصوح، فتقبلها الله وتاب عليه. وكان ذنب إبليس نتيجة تمرد على الله ورفض لأوامره، واستكبار عن طاعته، فطرده الله مذموماً مدحوراً، عليه اللعنة إلى يوم الدين.

والإخوان بشر من بني آدم، فلا غرابة أن نجد منهم الخطائين، الذين يخالفون ما به أمروا، أو يرتكبون ما عنه نهوا، ولكن خير الخطائين التوابون المستغفرون، وهذا هو العلاج الذي تحتاج إليه القلوب لتشفى:

التوبة النصوح، والإستغفار الصادق، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالشعور بالذنب، وخشية العقوبة من الرب، والتضرع إليه بصدق العبودية، وذل **الإعتراف**.

ومع هذا كله، وهب الإخوان كل ما أصابهم من أذى، وما قدموه من تضحيات لله جل جلاله. فقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله، واشترى الله تعالى منهم ذلك بأن لهم الجنة، وهم لم يستقيلوا هذه الصفقة أو يتراجعوا عنها، ولن يفعلوا إن شاء الله، ولن يقبلوا دون الجنة بديلاً.

---

(1) الأعراف: آية ١٢.   (2) الأعراف: آية ٢٣.

ولهذا لم يفكر الإخوان في الإنتقام ممن سجنوهم وعذبوهم، وصادروا أموالهم، وجوعوا أسرهم، وقتلوا منهم من قتلوا سراً وعلانية، ولم يسمع أحد أنهم اختطفوا واحداً من جلاديهم، وأطلقوا عليه الرصاص في عينه اليمنى أو اليسرى، وكان في إمكانهم أن يفعلوا، لو أرادوا، وفيهم المدربون الذين أرعبوا اليهود، وأقضّوا مضاجع الإنجليز، ولكن تربيتهم لم تسمح لهم بهذا اللون من التفكير، بل تركوا خصومهم لله، فانتقم منهم واحداً بعد الآخر، في الدنيا قبل الآخرة، وما عند الله أشد وأخزى، على أن ما يريدونه أكبر وأعمق من الإنتقام من أفراد صغروا أم كبروا.

ولقد قدر للإخوان أن يروا بأعينهم مصاير الكثيرين من جلاديهم، ذلاً وهواناً، أو جنوناً وسقاماً أو قتلاً ونكالاً، حتى أن الأستاذ الهضيبي ـ رحمه الله على كبر سنه ـ، عاش حتى رأى الذين سجنوه أنفسهم، يدخلون السجن معه ومع إخوانه، غير أنهم دخلوه وهم يبكون بكاء الأطفال، على حين استقبله الإخوان بابتسامة الأبطال.

ليس معنى هذا، أن كل الإخوان كانوا على هذا المستوى من الربانية الصافية. ولكن أقول بصدق: إن طابع الربانية المشرق، كان هو الغالب عليهم، والمهيمن على أكثرهم، فالطاعة فيهم هي القاعدة، والمعصية هي الشذوذ، فقد شغلوا بالآمال الكبيرة عن الشهوات الصغيرة، وبأحلام الآخرة عن مطامع الدنيا، وبالقضايا العامة عن المنافع الخاصة. ومن أغواه شيطانه يوماً فزلت قدمه،

سرعان ما يستيقظ ضميره، ويصحو قلبه، ويرجع إلى باب بفرحه نادماً باكياً تائباً. ولا زلت أذكر شاباً كان في عنفوان شبابه، قادته غريزته في لحظة ضعف عارضة، وغفلة قلب طارئة، فتورط في المعصية، ثم أفاق فجأة ليجد نفسه قد تلوث بعد طهارة، وانحرف بعد إستقامة، وغوى بعد رشد، وأحس بمرارة المعصية، بعد أن ذاق حلاوة الطاعة، فاعتكف في بيته أياماً يبكي على نفسه، ويتقلب على جمر الغضا، ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، فلم يعد يلقى أحداً، ولا يخرج من حجرته، حياء من ربه، وخجلاً من نفسه، وفراراً من إخوانه، مع أن أحداً منهم لم يعلم بما حدث له غيري، لولا أن كتبت إليه، أفتح له باب الأمل في التوبة، والرجاء في مغفرة الله، وأذكره بحديث الرسول الكريم: «من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن»، وقول علي «سيئة تسوءك خير من حسنة تعجبك»، أي تصل بك إلى درجة العجب والغرور بها. وقول إبن عطاء الله: «ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية، فكانت سبباً في الوصول. معصية أورثت ذلاً وإنكساراً، خير من طاعة أورثت عجباً واستكباراً».

* * *

التَّكَامل وَالشّمول

ومن خصائص التربية الإسلامية ، كما فهمها الإخوان وطبقوها :

التكامل والشمول.

فليست التربية الإسلامية، مقصورة الغاية على جانب واحد من جوانب الإنسان، التي يهتم بكل واحدة منها أهلها والمختصون بها.

إنها لا تضع كل اهتمامهافي الناحيةِ الروحية أو الخلقية، التي يعنى بها المتصوفة والأخلاقيون.

ولا تقصر كل جهودها على الناحية الفكرية، التي يهتم بها الفلاسفة والعقليون.

ولا تجعل أكبر همها في التدريب والجندية، التي يحرص عليها العسكريون.

ولا تحصر نشاطها في التربية الإجتماعية، كما يصنع المصلحون الإجتماعيون.

إنها في الواقع، تهتم بكل هذه الجوانب، وتحرص على كل هذه الألوان من التربية.

ذلك أنها تربية للإنسان كل الإنسان: عقله وقلبه، روحه وبدنه، خلقه وسلوكه، كما أنها تعد هذا الإنسان للحياة بسرائها وضرائها، سلمها وحربها، وتعده لمواجهة المجتمع بخيره وشره، حلوه ومره.

لهذا، كان لا بد من العناية بالتربية الجهادية، والتربية الإجتماعية، حتى لا يعيش المسلم في وادٍ، والجماعة من حوله في وادٍ آخر.

إنه التكامل والشمول الذي تميز به الإسلام في مجال العقيدة، وفي مجال العبادة، وفي مجال التشريع، يتميز به أيضاً في مجال التربية.

وفي هذه الصحائف، سنتحدث بإيجاز عن هذه الجوانب الأساسية، التي اهتمت بها التربية الإخوانية، أو بعبارة أدق: التربية الإسلامية كما فهمها الإخوان وطبقوها.

أما الجانب الروحي أو الرباني، فقد أفردناه بالحديث فيما سبق، واعتبرنا التأكيد عليه جدير أن يكون وحده، إحدى خصائص التربية الإسلامية ، بل هي الخصيصة الأولى.

الجانب العقلي:

وللإخوان عناية كبيرة بهذا الجانب، تبعاً لعناية الإسلام نفسه

به، فإن أول آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ - هي : ﴿إقرأ باسم ربك﴾.

الإسلام دين يحترم العقل، ويجعله مناط التكليف، ومحور الثواب والعقاب. والقرآن مليء بمثل هذه الفواصل: ﴿أفلا يعقلون﴾، ﴿أفلا تتفكرون﴾، ﴿لآية لقوم يعقلون﴾، ﴿لقوم يتفكرون﴾، ﴿لأولي الألباب﴾، ﴿لأولي النهى﴾.

فالتفكير في الإسلام عبادة، وطلب البرهان واجب، وطلب العلم فريضة، كما أن الجمود رذيلة، والتقليد جريمة.

فالإسلام يريد من المسلم أن يكون على بينة من ربه، وأن تكون دعوته ﴿على بصيرة﴾، ولا يقبل إيمان المقلد، ولا يرضى ممن آمن به أن يكون إمعة، يفكر برأس غيره، ويقاد فينقاد بغير تفكير ولا تبين، بل الواجب أن يفكر وينظر ويتفقه، و: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»..

فلا غرو أن تكون التربية العقلية لازمة لزوم التربية الإيمانية، أو الروحية، فإن سلوك الإنسان، إنما هو صورة من تفكيره وتصوره للوجود وللحياة وللإنسان.

ولهذا جعل الأستاذ البنا «الفهم»، أول أركان البيعة، وقدمه على الإخلاص، والعمل، والجهاد، والأخوة، وغيرها من أركان الدعوة الأصلية لأن الفهم يسبقها جميعاً، والمرء لا يخلص للحق،

ويعمل له، ويجاهد في سبيله، إلا بعد أن يعرفه ويفهمه.

والقرآن يجعل العلم سابقاً على الإيمان والإخبات، وهما نتائج له، أو متفرعان عنه. قال تعالى: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم﴾[1].

وقد جاء في النظام الأساسي للإخوان، في بيان أغراض الجماعة، وأهداف الحركة، أن في مقدمتها: «الغرض العلمي»، بشرح دعوة القرآن الكريم، شرحاً دقيقاً يوضحها ويردها إلى فطريتها وشمولها، ويعرضها عرضاً يوافق روح العصر، ويرد عنها الأباطيل والشبهات..

والغرض الثاني: «الغرض العملي»، بجمع القلوب والنفوس على هذه المبادىء القرآنية، وتجديد أثرها الكريم فيها.. وأن من وسائلها، الدعوة بطريق النشر والإذاعة المختلفة.. والتربية، بطبع أعضاء الهيئة على هذه المبادىء، وتمكين معنى التدين العملي لا القولي في أنفسهم أفراداً وبيوتاً.. وتكوينهم تكويناً صالحاً: بدنياً بالرياضة، وروحياً بالعبادة، وعقلياً بالعلم.

وهذا ما قامت عليه التربية الإخوانية، التي جعلت التكوين العقلي أو الثقافي، في طليعة منهاجها التكاملي.

وتربية الإخوان هنا، تقوم على أساس تكوين «عقلية

---

(١) الحج: آية ٥٤.

مسلمة»، تفهم الدين والحياة فهمًا صحيحاً.

ومن هنا، لا بد أن يأخذ الأخ المسلم من الثقافة الإسلامية، القدر الذي يفهم به عقيدته، ويصحح عبادته، ويضبط سلوكه، ويقف به عند حدود الله، في حلاله وحرامه، وأمره ونهيه، ويستطيع في ضوئه أن يحكم على الأحداث والأشخاص والمواقف والقضايا بعقلية المسلم، الذي ينظر من زاوية إسلامية، ويحكم بمعيار إسلامي.

كما أنه لا بد أن يفهم الحياة من حوله، كيف تسير، وكيف تتحول، وكيف تتأثر، وما عوامل التسيير والتحويل والتأثير؟

ولا بد أن يبدأ الأخ بمعرفة المجتمع الصغير،الذي يعيش فيه، كالقرية أو المدينة، ثم يتدرج إلى معرفة المجتمع الأوسع، كالوطن، بالمعنى الجغرافي أو السياسي، ثم الوطن الكبير- الوطن العربي- من الخليج إلى المحيط، ثم الوطن الأكبر من المحيط إلى المحيط، وهو الوطن الإسلامي.

ولا بد أن يعرف التيارات المناوئة، والقوى المعادية، من اليهودية والصليبية والشيوعية، وعملائها في قلب العالم الاسلامي، من العلمانيين والمنحلين والمقلدين والحاقدين والنفعيين.. وغيرهم من عباد المادة، وعبيد المناصب.

وهذا ما قامت مناهج التربية الثقافية للإخوان على توفيره

وتهيئته، وأنشىء لذلك قسم الأسرة ، مستعيناً في ذلك بكل الأقسام الأخرى، وكل ذي خبرة في مجال التربية الإسلامية.

فهم الإخوان الإسلام فهمًا جديداً قديماً..

أما جدته، فلغرابته على كثير من الناس، حتى من أبناء المسلمين أنفسهم، حيث اعتبروا الإسلام ديناً ودولة، وعبادة وقيادة، وروحانية وعملًا، وصلاة وجهاداً، ومصحفاً وسيفاً، وكما أعلن مؤسس الحركة في الأصل الأول من أصوله العشرين:

«الإسلام نظام شامل، يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، كما هو عقيدة سليمة، وعبادة صحيحة، سواء بسواء».

وكان المفهوم الغربي المسيحي للدين- باعتباره علاقة بين المرء وربه، وأن مكانه المساجد والزوايا، وأن لا علاقة له بالدولة والمجتمع- قد سيطر على الكثيرين، حتى كان من وسائل الطعن في دعوة الإخوان، أنها خلطت بين الدين والسياسة!

كان هذا الفهم للإسلام جديداً على الناس، حتى سماه الشهيد حسن البنا: «إسلام الإخوان المسلمين». ولكنه في الواقع فهم قديم قدم الإسلام ذاته، لأنه فهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان

لإسلامهم: إسلام القرآن والسنة.

لقد ساء فهم المسلمين للإسلام، نتيجة لأمرين هامين:

أولهما: رواسب عصور التخلف، وما دخل فيها على الإسلام من شوائب ومبتدعات وسوء تصور، بسبب تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، كما أدى إلى كثير من التشويه لجمال الإسلام، وتفكيك ترابطه، واختلال التوازن بين أحكامه وتعاليمه، فقدم ما حقه التأخير، وأخر ما حقه التقديم، وتضخم ما حقه أن ينكمش، وتضاءل ما حقه أن يعظم.

وفي هذا المناخ، راج التقليد والتعصب المذهبي.

ثانيهما: آثار الغزو الفكري، أو الإستعمار الثقافي، الذي منيت به بلاد المسلمين في عهد **الإحتلال** الاجنبي، الذي أدخل في حياة المسلمين مفاهيم جديدة، وأفكاراً دخيلة، روجها وثبتها عن طريق المؤسسات التربوية والتعليمية، والأجهزة التثقيفية والتوجيهية.

وكان أشد ما نجح فيه الإستعمار خطراً، أنه ربى وراءه من أبناء المسلمين جمهرة ممن يسمون «المثقفين»، صنعهم على عينه، وغذاهم من لبانه، وأرضعهم فلسفة حياته، ولقنهم وجهة نظره، وملأ عقولهم وقلوبهم إعجاباً بحضارته، واحتراماً لنظمه، وحباً لتقاليده، ولم يعرفهم عن دينهم وحضارتهم

وتراثهم إلا القليل في كميته، الضعيف في كيفيته، التافه في قيمته، المتناقض في مضمونه، الممسوخ في شكله وصورته.

ولا غرو أن وجدنا مسلمين يعيشون في أوطانهم غرباء عنها، وجوههم وجوه المواطنين العرب المسلمين، وعقولهم عقول الخواجات الأوروبيين أو الأمريكيين.

وكان على التربية الإخوانية أن تواجه آثار الجهل القديم، والتجهيل الجديد، وأن تجتهد في وضع منهاج متكامل لتثقيف «الأخ المسلم»، تثقيفاً يستمد عناصره من ينابيع الإسلام الصافية، قبل أن تكدرها الشوائب بالزيادة أو الحذف، بعيداً عن تعقيدات المتكلمين، وتكلفات المتصرفين، واعتراضات المتفقهين.

ولهذا كان القرآن الكريم وتفسيره، أول مصادر الثقافة لدى الإخوان، على أن تفسير السلف مقدم على غيرهم، ومن هنا حفلوا بتفسير ابن كثير، وجعلوه من مراجعهم المفضلة.

وكانت السنة هي المصدر الثاني، على أن يرجع في توثيقها وشرحها إلى أئمة الحديث الثقات.

يقول الإمام الشهيد حسن البنا في الأصل الثاني من الأصول العشرين: «والقرآن الكريم، والسنة المطهرة، هما مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام».

«ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية، من غير تكلف ولا

تعسف، ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقات».

ومن هنا، اهتم الإخوان بعلوم القرآن وعلوم الحديث، ووجهوا العناية لبعض كتب الحديث، مثل: «رياض الصالحين» للإمام النووي، كذلك اهتم الاخوان بفقه الحديث أو فقه السنة، كما عنوا بدراسة السيرة النبوية وفقهها، وإستخلاص العبر منها، باعتبارها النموذج التطبيقي للإسلام، والتفسير العملي للقــرآن.

ولم يغفل الإخوان في تثقيفهم التاريخ الإسلامي، وسير أبطاله من القادة والعلماء والمصلحين.

ولم ينس المنهاج التربوي للإخوان، التيارات المعادية، والقوى المناوئة: دينياً وفكرياً وسياسياً، كالصهيونية، والشيوعية، والإستعمار، والتبشير، والماسونية، والبهائية، والقاديانية.. وغيرها.

ولا ريب أن شعب الإخوان ومراكزهم ، كانت دوراً للعلم والتوعية الإسلامية الجماهيرية، كما كانت «أسرهم» حلقات منظمة للتربية الفكرية، وقد آتت هذه التربية أكلها في قاعدة عريضة من أبناء الشعب، فتحررت عقولهم من الأوهام والخرافات، وانفتحت أعينهم على قضايا العالم الاسلامي الكبير، وخرجت من قمقم الوطنية الضيق، إلى باحة الإسلامية الرحبة، وأطلت على الثقافة الإسلامية الواسعة، وأمهات مراجعها ببصائر نيرة، وعقول مفتوحة.

ولا يخفى أن غلبة اللون الشعبي على جمهور الإخوان، وغلبة الطابع العاطفي والخطابي على الجمهور المصري بصفة عامة، منذ عهد مصطفى كامل، وسعد زغلول، وحاجة الناس في ذلك الوقت إلى صحوة القلوب، ويقظة الضمائر، وعدم وجود أحزاب عقائدية مناوئة لفكرة الإسلام، كالشيوعية ونحوها، وانشغال الجماعة بنشر الدعوة من ناحية، وبالواقع العملي ومتطلباته من ناحية أخرى، وتعرضها للمضايقات والاضطهادات منذ عهد مبكر، كل هذا، كان له أثره في التقليل من تعميق الجانب الفكري ـ بالقدر المنشود ـ، لدى كثير من جماهير الإخوان، وفي تأخير نضوج الطاقات العلمية والفكرية لدى الإخوان، إلى أواخر الأربعينات، وأوائل الخمسينات، حين شب الصغير، ونضج الكبير، وبرزت المواهب الكامنة.

وقد أدرك الإمام حسن البنا في أواخر حياته، حاجة الجماعة إلى تعميق الجانب الفكري والعلمي لدى أفرادها من جانب. وإلى توضيح جوانب الإسلام ومقاصده لغير الإخوان من جانب آخر، فأنشأ مجلة «الشهاب» الشهرية، لتملأ هذا الفراغ، وتقوم بهذا الدور، وتخلف مجلة «المنار»، التي توقفت بعد وفاة مؤسسها، العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله. ولكن لم يُقدّر لهذا الوليد المرتجى أن يستمر أكثر من خمسة أعداد. كان حسن البنا يكتب بنفسه جل مادتها، ثم كانت محنة ديسمبر ١٩٤٨، ثم اغتيال صاحب الشهاب في فبراير ١٩٤٩.

الجانب الخلقي:

ومن أهم جوانب التربية لدى الإخوان: الجانب النفسي أو الخلقي، فقد اشتد اهتمامهم به، وتأكيدهم عليه، واعتباره هو المحور الأول للتغيير الإجتماعي، وكان الإمام الشهيد حسن البنا، رحمه الله، يسميه «عصا التحويل»، كالعصا التي تحول اتجاه الترام، ونحوه من طريق إلى آخر، ومن جهة إلى أخرى، ويردد في هذا قول الشاعر:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

وكان يؤمن ويردد: أن أزمة العالم، إنما هي أزمة نفوس وضمائر، قبل أن تكون أزمة إقتصاد وسياسة.

وتحت عنوان: «من أين نبدأ»، يكتب حسن البنا في رسالته: «إلى أي شيء ندعو الناس»؟ يقول: «إن تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، ومناصرة المبادىء، تحتاج من الأمة التي تحاول هذا، أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل، إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ، وإيمان به وتقدير له، يعصم من الخطأ فيه، والإنحراف عنه، والمساومة عليه، والخديعة بغيره.

على هذه الأركان الأولية، التي هي من خصوص النفوس

وحدها، وعلى هذه القوة الروحية الهائلة، تبنى المبادىء، وتتربى الأمم الناهضة، وتتكون الشعوب الفتية، وتتجدد الحياة، فيمن حرموا الحياة زمناً طويلاً.

وكل شعب فقد هذه الصفات الأربع، أو على الأقل فقدها قواده ودعاة الإصلاح فيه، فهو شعب عابث مسكين، لا يصل إلى خير، ولا يحقق أملاً، وحسبه أن يعيش في جو من الأحلام والظنون والأوهام: ﴿وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[1].

هذا هو قانون الله تبارك وتعالى، وسنته في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2].

وهو أيضاً القانون الذي عبر عنه ﷺ في الحديث الصحيح ومعناه: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، ولينزعنّ الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن».

فقال قائل: أو من قلة نحن يا رسول الله يومئذ؟ قال: «لا، إنكم حينئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل».

فقال قائل: وما الوهن يا رسول الله؟

قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

---

(١) النجم: آية ٢٨.

(٢) الرعد: آية ١١.

أولست تراه ﷺ، قد بين أن سبب ضعف الأمم، وذلة الشعوب، وهن نفوسها، وضعف قلوبها، وخلاء أفئدتها من الأخلاق الفاضلة، وصفات الرجولة الصحيحة، وإن كثر عددها، وزادت خيراتها وثمراتها.

وجاء المرشد الثاني، الأستاذ حسن الهضيبي- رحمه الله-، فلم يكن تركيزه على هذه الناحية أقل من الأستاذ البنا، وله في ذلك كلمات مأثورة- محفوظة، مثل قوله:

«أخرجوا الإنجليز من قلوبكم، يخرجوا من بلادكم».

وقوله: «أقيموا دولة الإسلام في صدوركم، تقم على ارضكم».

وهو لا يريد بهذه الكلمات، التقليل من شأن العمل أو الكفاح السياسي والعسكري لإجلاء الانجليز، وإقامة دولة الإسلام.

كيف وقد دفع أبناءه وجنود دعوته، إلى الجهاد والإستشهاد على ضفاف القناة والتل الكبير؟.

إنما يريد أن السر في كل كفاح ناجح، يكمن أول ما يكمن في تلك التهيئة النفسية، والتعبئة الشعورية، والتربية الأخلاقية، التي تغير الأفراد، فتتغير بها المجتمعات من حال الى حال، كما بين ذلك القرآن، حين قرر تلك السنة الإجتماعية التي لا تتبدل:

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1].

والإسلام يعتبر الأخلاق الفاضلة من شعب الإيمان، أو من ثماره اليانعة.

فكما يتمثل الإيمان الإسلامي في سلامة العقيدة، وإخلاص العبادة.. يتمثل كذلك في استقامة الخلق.

وفي الحديث: «أكمل المؤمنين إيماناً، أحسنهم خلقاً».

والخلق أو الأخلاق، كلمة بعيدة المدى في مدلولها، حتى أن الرسول يحدد مهمة رسالته فيقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وحتى أن أجل ما أثنى الله به على رسوله قوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2]. وقد سئلت السيدة عائشة عن خلقه عليه الصلاة والسلام فقالت: كان خلقه القرآن. أي أن كل ما جاء به القرآن من فضائل، وما أمر به من أوامر، وما حث عليه من صالحات الأعمال، فهو خلقه ﷺ.

ليس الخلق إذن هو مجرد لين الجانب، وحسن العشرة، كما يفهم كثير من عامة الناس، وإن كان هذا ركناً ركيناً من أخلاق المسلم: «وخالق الناس بخلق حسن» «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون».

---

(1) الرعد: آية ١١.
(2) القلم: آية ٤.

وليس الخلق مقصوراً على التعفف عن النساء والخمر، كما يريد أن يفهم آخرون، وإن كان هذا من أول ما يحرص عليه الإسلام: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم﴾[1]، ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[2]

بل يشمل هذا وذاك، ويشمل ما هو أوسع وأعمق من جوانب الحياة: من ضبط النفس، والصدق في القول، والإحسان في العمل، والأمانة في المعاملة، والشجاعة في الرأي، والعدل في الحكم، والصلابة في الحق، والعزم على الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحرص على النظافة، واحترام النظام، والتعاون على البر والتقوى.

ومن أهم ما عُني الإخوان بغرسه في أنفس رجالهم من الفضائل الخلقية:

١ـ **الصبر**: سواء كان صبراً على طول الطريق، أم على كثرة الأشواك فيه، أم على كثرة قطاعه بطريق الخوف، أم على كثرة قواطعه بطريق الطمع، فلا بد من الصبر على هذا كله، دون مبالاة بإعراض الناس، أو سخريتهم، أو تثبيطهم أو إيذائهم، ولا سيما أن الصبر هو العدة عند الجهاد، والذخيرة عند المحن، والمعين على تكاليف الحق، حتى قرن الله بين التواصي بالصبر

(١) النور: آية ٣٠. (٢) المائدة: آية ٩٠.

والتواصي بالحق في آية واحدة : ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[1]. وقال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ إبنه : ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور﴾[2].

ولهذا كان دعاء الممتحنين بتهديد الطغاة:
﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾[3].
وكان دعاء المقاتلين في الميدان:
﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾[4].

٢ـ الثبات: ومما يتصل بالصبر ويكمله: «الثبات»، وقد جعله الأستاذ البنا أحد أركان البيعة العشرة ، وفسره بقوله:

«وأريد بالثبات، أن يظل الأخ عاملاً مجاهداً في سبيل غايته، مهما بعدت المدة، وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك، وقد فاز بإحدى الحسنيين، فإما الغاية، وإما الشهادة في النهاية. ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾[5]

والوقت عندنا جزء من العلاج، والطريق طويلة المدى،

---

(١) العصر: آية ٣.
(٢) لقمان: آية ١٧.
(٣) الأعراف: آية ١٢٦.
(٤) البقرة : آية ٢٥٠.
(٥) الأحزاب: آية ٢٣.

بعيدة المراحل، كثيرة العقبات، ولكنها وحدها التي تؤدي إلى المقصود، مع عظيم الأجر، وجميل المثوبة.

وآفة كثير من المنتسبين إلى الدعوات: قصر النفس، وضيق النفس. فينقطعون في وسط الطريق، أو يرجعون القهقرى، أو ينحرفون يمنة أو يسرة. بعد أن بعدت عليهم الشقة، وثقل عليهم المسير، وطال عليهم الطريق.

لهذا كان التأكيد على هذا الخلق «الثبات»، ضرورياً لأمثال هؤلاء، حتى يستمروا ولا يتوقفوا أو يرتدوا، وبخاصة أن النفس مولعة بحب العاجل، وقد خلق الإنسان من عجل. ومن ثم قال الله لرسوله: **﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾**[1]

وآفة آخرين أنهم يظلون في الطريق ما دام الريح رخاء، والسماء صحواً، والجو صافياً فإذا اكفهر الجو، وتلبدت السماء بالغيوم، وعصفت الرياح، ضعف احتمالهم، وانقطع سيرهم، كالذي وصفه الله بأنه إذا: **﴿أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾**[2] أو الذي **﴿وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾**[3]. وهكذا كل من يعبد الله على حرف.

وهناك من يصبر على البلاء، ويثبت في الشدائد، ولكنه

---

(١) الأحقاف: آية ٣٥.

(٢) العنكبوت: آية ١٠. (٣) الحج: آية ١١.

يضعف أمام المغريات وأعراض الدنيا ، فإذا عرض عليه مال، أو لوّح له بمنصب، سال له لعابه، وفقد توازنه، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل.

والواجب على كل صاحب دعوة، أن يكون له في رسول الله أسوة حسنة، حين عرض عليه المشركون ما عرضوا من المال والجاه، في مقابل التنازل عن دعوته. فقال كلمته التاريخية لعمه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه»!

٣ـ الأمل: ومعناه: الرجاء في انتصار الإسلام، والثقة بأن المستقبل له، وأن نصر الله قريب، وإن ادلهمت الخطوب، وتفاقمت الكروب.

وكان الشهيد البنا، يؤكد هذا المعنى ويصوغه بأساليب شتى، محارباً ما أشاعه الإستعمار والجهل من يأس قاتل، وقنوط مدمر، مذكراً بأن اليأس من لوازم الكفر، والقنوط من مظاهر الضلال، ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[1]، ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[2].

ومن كلماته: «إن حقائق اليوم كانت أحلام الأمس، وأحلام

(١) يوسف آية ٨٧.

(٢) الحجر: آية ٥٦.

اليوم هي حقائق الغد».

ويذكر أهداف الإخوان، وآمالهم الكبرى في تحرير مصر، والعالم العربي ثم الإسلامي، ثم توحيده تحت راية الخلافة المنشودة، ثم هداية العالم كله، ولا ينسى أن يذكر «العقبات» في الطريق، وهي شديدة وهائلة وكثيرة، ورغم هذا، يرى من الحق أن يذكر عوامل النجاح أمام هذه العقبات جميعاً قائلاً: «إننا ندعو بدعوة الله، وهي أسمى الدعوات، وننادي بفكرة الإسلام وهي أقوى الفكر، ونقدم للناس شريعة القرآن وهي أعدل الشرائع، وإن العالم كله في حاجة إلى هذه الدعوة، وكل ما قد يمهد لها ويهيىء سبيلها، وإننا بحمد الله براء من المطامع الشخصية، بعيدون عن المنافع الذاتية، لا نقصد إلا وجه الله، وإننا نترقب تأييد الله ونصرته، فمن نصره الله فلا غالب له: فقوة دعوتنا، وحاجة العالم إليها، ونبالة مقصدنا، وتأييد الله إيانا، هي عوامل النجاح التي لا تثبت أمامها عقبة، ولا يقف في طريقها عائق، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

وفي رسالته إلى الشباب، يذكر أهداف الدعوة الكبرى، فردية وإجتماعية، محلية وعالمية، ثم يقول:

«يا شباب: لستم أضعف ممن قبلكم، ممن حقق الله على أيديهم هذا المنهاج، فلا تهنوا وتضعفوا، وضعوا نصب أعينكم قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم

فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾[1].

سنربي أنفسنا ليكون منا الرجل المسلم، وسنربي بيوتنا ليكون منها البيت المسلم، وسنربي شعبنا ليكون منه الشعب المسلم، وستكون من بين هذا الشعب الحكومة المسلمة..

وسنسير بخطوات ثابتة إلى تمام الشوط، وإلى الهدف الذي وضعناه لأنفسنا، وسنصل بإذن الله ومعونته: **﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾[2].**

وقد أعددنا لذلك إيماناً لا يتزعزع، وعملاً لا يتوقف، وثقة بالله لا تضعف، وأرواحاً أسعد أيامها يوم تلقى الله شهيدة في سبيل الله».

بمثل هذه الروح الدافقة، كان يزرع الثقة، ويبعث الرجاء، ويحيي الأمل في انتصار الإسلام، في نفوس طالما دمرها اليأس والقنوط.

ويؤكد في حديث له حتمية النصر للإسلام، بأربعة أدلة منها:

* الدليل العقلي، من الآيات والأحاديث الكثيرة المنتشرة، مثل: **﴿ليظهره على الدين كله﴾[3]، ﴿ويأبى الله إلا أن يتم**

---

(1) آل عمران: آية ١٧٣.

(2) التوبة: آية ٣٢.

(3) التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

نوره﴾[1]، «ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار»الخ.

* **الدليل التاريخي**، وهو أن هذا الدين أشد ما يكون قوة، وأصلب ما يكون عوداً، حين تحيط به النوائب، كما في حرب الردة، وحروب الصليبيين، والتتار، حتى أن التتار الغالبين يدخلون مختارين في دين المغلوبين.

* **الدليل الحسابي**، فقد كانت قيادة الحضارة يوماً شرقية بحتة على يد الفراعنة والهنود، والصين والفرس، ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب عن طريق اليونان والرومان، ثم عادت إلى الشرق عن طريق الحضارة الإسلامية ، ثم انتقلت إلى الغرب الحديث كما نرى اليوم، وها نحن ننتظر أن تعود إلى الشرق مرة أخرى، بعد أن أفلس الغرب معنوياً وروحياً، ودمره صراع النفس، وصراع البيت، وصراع المجتمع ، وصراع السلام.

٤ـ **البذل**: وهو من أبرز الأخلاق التي ربي عليها الإخوان، وقد يعبر عنه بالتضحية، ونعني به ألا يبخل الأخ على دعوته بجهد ولا مال ولا وقت، ولا يدخر وسعاً في نشرها ومد شعاعها، وتأييد دعاتها، ومساعدة أبنائها بالنفس والنفيس، والغالي والرخيص، وأن يكون شعار الأخ: أعط ليستفيد غيرك، وازرع ليحصد الآخرون، واتعب ليستريح الناس.

---

(١) التوبة: آية ٣٢.

وقد استطاع الإخوان بفضل هذا الخلق الأصيل، برغم أن أكثريتهم رقاق الحال، أن يقوموا بكل ما تتطلبه الدعوة من نفقات، وما تستلزمه من مشروعات، حتى أن منهم من باع دراجته، ليسهم بثمنها في بناء دار الإخوان، ومسجدهم بالإسماعيلية، ليذهب بعد ذلك إلى مقر الجماعة كل ليلة، ماشياً على قدميه مسافة ستة كيلو مترات ذهاباً ومثلها إياباً. والعجيب أنه فعل ذلك دون أن يذكره لأحد، لولا أن المرشد الأول رحمه الله، لاحظ تأخره عن الموعد المحدد أكثر من مرة، ويبدي أسفه واعتذاره بأشياء أخرى، حتى اكتشف السبب الحقيقي، فأكبر إخوانه موقفه وأبوا إلا ان يشتروا له دراجة جديدة قدموها هدية إليه، تقديراً لبذله الكريم، وشعوره النبيل. واسم الأخ الأوسطى «علي أبو العلا»، كما في «مذكرات الدعوة والداعية».

الجانب البدني:

ولم يغفل الإخوان في تربيتهم الجانب البدني للأخ المسلم، فالبدن هو مطية الإنسان للوصول إلى أهدافه، والقيام بأعبائه الدينية والدنيوية. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «إن لبدنك عليك حقاً».

وهدف الإخوان من هذه التربية:

اولاً: صحة الجسم وسلامته من الأمراض، فإن لهذه الصحة

أثرها في النفس وفي العقل، حتى قالوا قديماً: العقل السليم في الجسم السليم. كما أن الجسم العليل يشل صاحبه عن النهوض بأعبائه. ولهذا كانت العناية بالنظافة والوقاية والعلاج، ومقاومة العادات الضارة، كالسهر الطويل، والتدخين، وغيرها، وكان من واجبات الأخ العامل أن يقلل من قهوة البن والشاي، وأن يمتنع عن التدخين بتاتاً.

ثانياً: قوة الجسم ومرونته، فلا يكفي السلامة من المرض، بل يجب أن يكون الجسم قوياً مرناً قادراً على الحركة بسرعة وسهولة. و «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف». ولهذا كان الإهتمام بالتمرينات الرياضية، وألعاب القوى، والعدو، والسباحة، والرماية، وما إليها. وفي الأثر: «علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل».

ثالثاً: خشونته وتحمله: فلا تكفي صحة الجسم ولا قوته، ما لم يألف الخشونة، ويتعود احتمال المشقات، وركوب المصاعب، والإستعداد لمواجهة مختلف الظروف، من حر وبرد، وغور ونجد، وجلوة وفقد، وقد قيل: اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم.

ولهذا كله، إهتم الإخوان بإنشاء الأندية الرياضية، والفرق الكشفية، وتهيئة الرحلات والمعسكرات، دورية وغير دورية، للتدريب الجاد على حياة الخشونة، والتحمل والصبر على المكاره والمتاعب في الصحارى والجبال، وتحت وقدة الشمس، أو وطأة

الزمهرير، أو سقوط المطر، مع قلة الماء والطعام، ومع رداءة هذا وسخونة ذاك، وقد لا يكتفي الإخوة المدربون بهذا، فيعمدوا إلى وضع الحصى أو الرمل عمداً في العدس أو الفول ونحوه، ليكون الأخ المسلم قادراً على مواجهة أي ظرف طارىء، فقد تعود الشدة، وألف المشقة.

ولا ريب أنه كان لهذه التربية، التي بلغت درجة العنف في بعض الأحيان، أثرها البين، وثمارها الدانية، في ميادين الجهاد، حين دقت ساعته، ودعا داعيه، فإن الناعمين المترفين لا يصلحون لحمل السلاح، حين يجد الجد، إنما يصلح له أولوا العزم والصبر من الرجال.

كما كان لها أثرها في السجون والمعتقلات، حيث كان ما يقدم من الطعام والشراب جزءاً من العقاب، والنوم على الألواح الخشبية المجردة و «الأبراش»، لوناً من الثواب، فالأسفلت هو الأصل، والإيذاء هو القانون!

الجانب الجهادي:

ومن جوانب التربية التي تميزت بها حركة الإخوان: التربية الجهادية، ولا أقول العسكرية. فإن مفهوم «الجهاد» أعمق وأشمل من مفهوم العسكرية.

إن العسكرية انضباط وتدريب، ولكن الجهاد إيمان وأخلاق،

وروح وبذل، مع الإنضباط والتدريب أيضاً.

ولقد كان معنى الجهاد قبل الإخوان ، شبه غائب عن التربية الإسلامية والحياة الإسلامية. فالجماعات الدينية، صوفية وغير صوفية، لا تعيره إلتفاتاً، والأحزاب الوطنية، إنما تهتم بالكفاح السياسي، والوعاظ والمرشدون في المساجد وغيرها، يعتبرون الجهاد خارج حدود مهمتهم الدينية.

فلما ظهرت حركة الإخوان، أحيت مفهوم الجهاد، ونوهت به، وجعلت له شأناً أي شأن في رسائلها وكتبها، وفي مجلاتها وجرائدها، وفي محاضراتها وندواتها، وفي أشعارها وأناشيدها. واعتبره الإمام البنا أحد أركان البيعة العشرة، وأحد هتافات الجماعة المعبرة عنها: الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.

ومن الوسائل التي اتخذها الإخوان للتذكير بالجهاد: الاحتفال بالمناسبات الإسلامية المتصلة به، كالغزوات الكبرى، مثل بدر وفتح مكة ونحوها.

ومن وسائلهم الخاصة، تقرير كتاب أو أكثر من كتب السيرة النبوية، للقراءة والدراسة في الأسر الإخوانية، والسيرة، إنما هي جهاد متواصل في سبيل الله، ولهذا سميت كتب السيرة قديماً: المغازي. وسمي كتاب «الجهاد» في علم الفقه كتاب «السير».

وكان من أوائل ما قُرر على الإخوان حفظه ودراسته القرآن الكريم: سورة الأنفال، تأكيداً لهذا المعنى الذي غفل المسلمون عنه.

وكان ثقافة الإخوان وتربيتهم بصفة عامة، تنمي فيهم شعور العزة والكرامة، وخلق البذل والعطاء، وروح الفداء وحب الاستشهاد، كما تزرع فيهم معاني الجندية المؤمنة، من الطاعة والنظام، وإنكار الذات في سبيل الجماعة.

ولقد برزت هذه المعاني مجسمة واضحة، يوم نادى المنادي سنة ١٩٤٨ بالجهاد، لاستنقاذ فلسطين، فتعالت الأصوات: أن هبي يا ريح الجنة. . ويا خيل الله اركبي، فتسابق أبناء الدعوة من كل مكان يريدون أن يحظوا بشرف الجهاد في الأرض المقدسة، حتى يدركوا إحدى الحسنيين: النصر على اليهود، أو الشهادة في سبيل الله.

وإني لا أنسى الأخ الحبيب النقي عبد الوهاب البتانوني، زميل الدراسة في معهد طنطا الديني الثانوي، وشوقه العارم إلى الجهاد في فلسطين، حتى أصبح ذلك حلم ليله، وشغل نهاره، وكان يمنعه من تحقيق رغبته الصادقة مانعان:

الأول: أمه التي تحبه كل الحب، وتحنو عليه أعظم الحنو، ولا سيما بعد وفاة والده رحمه الله، وهي لا تطيق فراقه بالبعاد، فكيف بالموت لو كان؟. ولهذا لم تأذن له، ولم ترض عن تطوعه في كتائب الإخوان، وهو حريص على برها وإرضائها ولا يجب أن ينفر للجهاد بغير رضاها وإذنها، ولهذا صحبنا إلى والدته لنحدثها عن فضل الجهاد، ومنزلة المجاهدين، وقصص أبطال المسلمين، وموقف

أمهاتهم منهم، وما زلنا بها حتى أذنت له ـ وعيناها تدمعان ـ بما يحلم به، ويصبو إليه.

والمانع الثاني: قرار مكتب الإرشاد للإخوان، بعدم السماح لطلاب المرحلة الثانوية بالتطوع، نظراً لصغر سنهم. وهنا رجانا الأخ البتانوني ـ رحمة الله عليه ـ أن نسافر من طنطا إلى القاهرة، لمقابلة المرشد العام، والإلحاح عليه لقبوله في كتائب الجهاد؛ وبخاصة، أن أمه قد أذنت له. وسافرنا ـ أنا والأخ أحمد العسال والأخ محمد الصفطاوي ـ وقابلنا الأستاذ البنا، وعرضنا عليه الأمر، وما زلنا به حتى قبل ووافق على سفره.

وكاد صاحبنا يطير فرحاً لهذه النتيجة ، وذكرنا ذلك لأستاذنا البهي الخولي فقال: إن صفاء عبد الوهاب هو صفاء الشهداء، وإني أحس كلما رأيته، أن دم الشهادة يترقرق في وجهه: وقد كان، فقد استشهد عبد الوهاب في عملية بطولية، مع إثنين من إخوانه، نسفوا بها مخزناً للذخيرة والسلاح، بعد أن دخله اليهود ووضعوا أيديهم عليه، فأشعل الإخوة النار في صناديق المفرقعات فاستحال في لحظة واحدة إلى كومة من الأنقاض، وذهب معه الأبطال الثلاثة إلى عليين.

ولم يكن هذا موقف الشهيد البتانوني وحده، فكم من شباب هربوا من أسرهم، ليدخلوا معسكر التدريب في هايكستب، وكم حاول بعض الآباء والأعمام، أن يثنوهم عن عزمهم، ويقنعونهم

بالعودة، فلم يفلحوا أمام إصرارهم، فعادوا راضين بالواقع، مؤمنين بأن روح الايمان سرى في أعماق هذا الجيل فغيره، فلم يعد يخاف الموت ما دام في سبيل الله، حتى كان بعضهم يقول: يا قوم دعوني، فإن الجنة تناديني.

وكم منهم من تحمل أبلغ المشاق، وركب قطار البضاعة، أو مشى على قدميه في صحراء سيناء، ليصل إلى قواعد إخوانه المجاهدين.

وكم من رجل باع ما يملك ليشتري بندقية أو مدفعاً، ليقاتل به دفاعاً عن أولى القبلتين.

وكم من زوجة قدمت حليها راضية ليبيعها زوجها، ليسلح بثمنها نفسه، وبذلك ساهمت في الجهاد مرتين: بالتخلي عن أغلى ما تحب، وبالرضا بفراق أعز من تحب.

ولا زلت أذكر قصة حسن الطويل، أحد الإخوان المزارعين من مركز بسيون، وقد سجل اسمه في كتائب المتطوعين، تاركاً أهله وزراعته، وكل شيء رغبه إلى ما عند الله. ولم يكتف بذلك بل باع جاموسته ـ وهي للفلاح كرأس المال للتاجر ـ ليشتري بها سلاحاً يقاتل به دفاعاً عن أرض النبوات. ولما قال له الحاج أحمد البس رئيس المنطقة: يا حسن ، دع الجاموس للعيال، وحسبك أنك تطوعت بنفسك، ووضعت روحاك في كفك، وعلى غيرك ممن لم يجاهد بنفسه أن يجاهد بماله. وهنا قال حسن قولة البصير بدينه: هل قال الله

تعالى: جاهدوا بأنفسكم أم قال: جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله؟ وهل اشترى منا النفس وحدها، أم النفس والمال جميعاً، ليعطينا الجنة؟ هل نسيتم الآية الكريمة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾[1]، أم تريدون أن نتسلم البضاعة دون أن ندفع لها الثمن؟

ولم يملك أحد إزاء هذا الإيمان والإصرار أن يقول شيئاً، وسافر حسن مع المقاتلين، وعاد مع العائدين، لا ليكرم ويحتفى به، ولكن ليزج به في المعتقل، جزاء ما قدمت يداه في قتال الصهيونيين! وكان له مع جلاد الغربية في وقته، الضابط سعد الدين السنباطي، موقف يذكر بالفخر والإعتزاز.

هذه الروح العالية الفذة، هي التي جعلت اليهود يضطربون رعباً، كلما ذكر اسم الإخوان المتطوعين من قريب، أو سمعوا صيحاتهم «الله أكبر» من بعيد.

ولقد قال بعضهم للضابط المجاهد معروف الحضري، حين كان في الأسر: نحن لا نخاف ألا من هؤلاء الإخوان المتطوعين! فسأله معروف: ولماذا تخشونهم وعددهم قليل وسلاحهم ضئيل؟! فقال الضابط الصهيوني في صراحة: نحن إنما جئنا من بلاد العالم إلى هذه الأرض لنعيش، وهؤلاء جاءوا إليها ليموتوا وما أبعد الفرق بين من يحرص على الحياة، ومن يحرص على الموت.

---

(١) التوبة: آية ١١١.

ولقد كان من المشكلات التي تواجه قيادة المجموعات الإخوانية في الميدان، أنها إذا كلفت فصيلة أو فرداً بعمل عسكري، بقي من الصعب إقناع الفصائل أو الأفراد الآخرين بالبقاء، فالجميع يتسابقون إلى شرف الجهاد، وقد لا يحل هذا التنافس إلا القرعة، أو الرضا بالتناوب. وكل فصيلة يقع عليها الإختيار للقيام بهجوم، يهلل أفرادها ويكبرون ويهتفوا: هبي ريح الجنة هبي..

ومما رواه الأستاذ كامل الشريف في مذكراته، التي سماها «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين»، أن الشاب المجاهد عبد الحميد خطاب، وهو نجل العالم المؤمن الشجاع الشيخ بسيوني خطاب، طلب إليه في معركة دير العلم، أن يبقى بالمعسكر للحراسة، فثار وبكى وانتحب، وما زال بالقائد حتى ضمه إلى المقاتلين، فكان حظه ما كان يتمناه: الشهادة في سبيل الله.

وما أروع ما سمعت من الإخوة المجاهدين، وكيف كانوا يستقبلون الموت، بعد أن يدخلوا المعركة مغتسلين متوضئين، في قلوبهم الإيمان، وفي جيوبهم المصاحف، وفي أيديهم المدافع، فاذا اصابت إحدهم رصاصة كبر وتشهد، وقال: وعجلت إليك رب لترضى.

وقد نزلت «دانة» من مدفع على ساق أحدهم فبترته، فكان إخوانه يبكون، وهو ينظر إلى ساقه مبتسمًا وينشد شعر الصحابي قديماً:

ولســت أبـالي حـين أقتـل مسلمـاً
على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلـك في ذات الإلّـه وإن يشـأ
يبـارك علـى أوصـال شـلو ممـزع

وفي إحدى المعارك، أصيب قائد الفصيلة، وهو الأخ السيد محمد منصور من الشرقية بضربة قاتلة، فشغل بإصابته عدد من إخوانه عن الهجوم، فما كان منه إلا أن نهرهم بشدة، فالمعركة أهم من حياته. ولما حملوه إلى الخطوط الخلفية أفاق من غيبوبته. فكان أول ما سألهم عن سير المعركة، فأجابوه بما طمأ ن نفسه، فابتسم وتمتم: الحمد لله. ولم يزل وهو في النزع الأخير يدعو الله لدينه وأمته، ولم يقف لسانه لحظة عن الدعاء: اللهم أنصر دعوتنا، وحقق غايتنا، حتى مضى إلى ربه راضياً مرضياً.

إنها أمثلة أعادت إلينا ذكريات العصور الأولى، وأثبتت أن هذه الأمة لا تزال بخير، وأن مفتاح شخصيتها هو الإسلام. وهو مصنع بطولاتها، ومفجر طاقاتها، وأن التغني بالقومية أو الوطنية، لا يحرك هذه الأمة ويوقظها، ما لم يحركها نداء الإيمان، وتربية الإسلام.

وقد حكى الأستاذ كامل الشريف في كتابه: «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين»، من الوقائع والقصص البطولية، ما

ينبغي أن يروى للأجيال القادمة، ليكون عبرة وذكرى، وإن ذكر إنه لم يسجل إلا تجربته هو.

وقد شهد قادة الجيش المصري في حرب فلسطين ، مثل اللواءين المواوي وصادق، أمام المحكمة التي حكمت في قضية سيارة «الجيب» لفدائيي الإخوان، بما يثلج صدور المؤمنين، ويغيظ الذين في قلوبهم مرض.

قال المواوي: «كان الإخوان ينزعون ألغام اليهود، وينسفونهم بها في صحراء النقب».

وقال اللواء فؤاد صادق: «كان الإخوان المسلمون جنوداً أبطالاً، أدوا واجبهم كأحسن ما يكون».

وتمت معركة أخرى تجلت فيها بطولة الإخوان المسلمين، وأثر تربيتهم الجهادية..

إنها معركة القناة، وقتال الإنجليز، وفيها كتب الأستاذ الشريف أيضاً كتابه: «المقاومة السرية فى قناة السويس».

ولا أحسب أحداً ينسى شهداء الإخوان.. وخصوصاً من طلاب الجامعة: عمر شاهين وأحمد المنيسي وعادل غانم، وغيرهم، ممن سطروا بدمائهم الزكية في معركة التل الكبير، وما قبلها وما بعدها، أن الحرية لا يمنحها المتسلطون، إنما يأخذها بدمائهم المجاهدون.

بقي أن أقول هنا: إن الاخوان وإن اهتموا بالقتال ومارسوه بالفعل، وقدموا في ساحاته الشهداء تلو الشهداء، من خيرة رجالهم، لم يكن هو كل الجهاد عندهم.

لقد كان مما تعلموه من الإسلام ، أن مفهوم الجهاد أوسع وأشمل من مفهوم القتال.

فإذا كان قتال الغاصبين والمحتلين لأي جزء من أرض الإسلام فريضة محكمة، ومقاومة الإستعمار الكافر، والكفر المستعمر، واجباً دينياً مقدساً، فإن جهاد المنافقين والمبتدعين، وجهاد الظلمة والفجرة، واجب لا يقل قداسة عن ذلك. والقرآن الكريم يقول: ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم**﴾[1].

والرسول ﷺ، سئل عن أفضل الجهاد فقال: «كلمة حق عند سلطان جائر».

ومعنى هذا، أن مقاومة الفساد الداخلي، كمقاومة الغزو من الخارج، كلاهما فريضة، وكلاهما جهاد.

وقد تحدث النبي ﷺ عن الأمراء الظلمة، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، وبيّن واجب الأمة المسلمة حين

---

(١) التوبة: ٧٣

تبتلى بحكمهم وتسلطهم فقال:

«من جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». يشير إلى أن الجهاد بالقلب- جهاد الكراهية والغضب والنفرة والمقاطعة - هو أضعف مراتب الإيمان، وهو لمن عجز عن جهاد اللسان، كما أن جهاد اللسان لمن عجز عن جهاد اليد.

فالجهاد إذن ليس للكفار فقط، ولا بالسيف فحسب، كيف وقد قال تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[1]. والمنافقون لا يجاهدون بالسيف، لأنهم محسوبون ظاهراً في عدادالمسلمين، وإنما يجاهدون بالبيان والوعظ وإقامة الحجة، والقول البليغ المؤثر في النفس. كما قال تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾[2].

وأصرح من ذلك قول الله لرسوله عن القرآن: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به (أي بالقرآن) جهاداً كبيراً﴾[3]. وهذا الأمر بالجهاد في سورة الفرقان، وهي مكية نزلت قبل أن يؤذن بالقتال، فضلاً عن أن يؤمر به.

---

(١) التوبة: ٧٣

(٢) النساء: آية ٦٣.

(٣) الفرقان: آية ٥٢.

فهذا الجهاد الكبير، هو جهاد الدعوة والثبات على تبليغها، والصبر على مرارتها، وتحمل مشاقها، وطول طريقها، وهو ما تشير إليه كذلك أوائل سورة العنكبوت: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾[1].

والرسول ﷺ، يبين أدوات الجهاد وألوانه في شأن الكفار فيقول: «جاهدوا المشركين بأيديكم وأموالكم وألسنتكم».

وفضلاً عن هذا كله.. هناك جهاد النفس حتى تتعلم الإسلام وتعمل به، وتدعو إليه، وتثبت على طريقه، حتى تفوز بإحدى الحسنيين.

وجهاد الشيطان الذي يغزو الإنسان من داخله، عن طريق الشبهات، يضل بها العقل، أو الشهوات يغوي بها الإرادة، فلا بد من مقاومته بسلاح اليقين الذي يطرد الشبهات، وسلاح الصبر الذي يهزم الشهوات، وبهذا ينتصر على الشيطان، عدو الإنسان في معركتيه، ويرتقي إلى مقام الإمامة في الدين، على جناحي الصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[2].

هذا هو الجهاد بمعناه الواسع في الإسلام، وهو ـ بالتالي ـ الجهاد في فهم الإخوان، وتربية الإخوان، وسلوك الإخوان.

---

(١) العنكبوت: آية ٦.
(٢) السجدة: اية ٢٤.

يقول شيخ الدعوة حسن البنا في رسالة «التعاليم»، شارحاً معنى الجهاد كما فهمه من الإسلام ، وكما يريده من أتباعه:

«وأريد بالجهاد: الفريضة الماضية إلى يوم القيامة، والمقصود بقول رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية».

وأول مراتبه: إنكار القلب. وأعلاها: القتال في سبيل الله. وبين ذلك جهاد اللسان والقلم واليد، وكلمة الحق عند السلطان الجائر.

ولا تحيا الدعوة إلا بالجهاد ، وبقدر سمو الدعوة، وسعة أفقها، تكون عظمة الجهاد في سبيلها، وضخامة الثمن الذي يطلب لتأييدها، وجزالة الثواب للعاملين: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾[1] أهـ».

وتربية الإخوان على الجهاد بهذا المفهوم الرحب، هي التي جعلتهم يجاهدون في سبيل الفكرة الإسلامية، جهادهم في سبيل الأرض الإسلامية، بل الفكرة هي المضمون والغاية، والأرض هي الوعاء والوسيلة، ومن أجل هذا، وقفوا في وجه الطواغيت في الداخل، وقوفهم في وجه الطواغيت في الخارج، وقاوموا العلمانيين، مقاومتهم للغاصبين المعتدين، ولم يجدوا فارقاً بين من

---

(١) الحج : آية ٧٨.

يعتدي على أرض الإسلام. ومن يعتدي على شريعة الإسلام. ولهذا خاضوا معركة تحرير الأرض، كما خاضوا معركة تحكيم الشرع، وسالت دماؤهم على أيدي الكفار اليهود والإنجليز، كما سالت دماؤهم على أيدي الفجار ممن يتسمون بأسماء المسلمين، وقدموا الشهداء على أرض فلسطين والقناة، في ساحات القتال، وشهداء مثلهم على أرض ليمان طرة والقلعة، والسجون الحربية وغيرها في ساحات التعذيب.

وكم حاولت قوى عديدة، بارزة ومستترة، في الداخل والخارج، أن تشتري الإخوان بالمال أو المناصب، وبذلك يحتوون الحركة ويسيطرون عليها، ولكن هذه القوى المالكة القادرة، لم تجد عند الإخوان، ولا عند مرشد الإخوان أذناً صاغية، إنما وجدت الرفض الصارم، والجواب الحاسم: ﴿أتمدونن بمال؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾[1]

وكم لجأت هذه القوى إلى أسلوب الوعيد، بعد أن أخفق أسلوب الوعد، ولوحت بالتهديد بعد أن خاب الإغراء، ولم يكن أسلوب الوعيد والتهديد بأنجح من أسلوب الوعد والإغراء. فكلا السهمين ارتد إلى نحر صاحبه.. ولم تجد تلك القوى- التي ترجى وتخشى- إلا الإصرار على الدعوة، والثبات عليها، وإن توعدوا بالنار والدمار، أو وعدوا بوضع الشمس في اليمين والقمر في اليسار.

---

(١) النمل: آية ٣٦.

وهذا الإباء الأشم، والموقف الصلب، من قضية الإسلام، وقضايا المسلمين، ورفض كل محاولة للمساومة عليها أو التفريط فيها، طالما عرض الحركة لتدبير المكايد لها، وحياكة المؤامرات لضربها، بل العمل على اقتلاعها من الجذور، لو استطاعوا.

وهذا هو السر وراء المحن القاسية المتلاحقة، والضربات الهمجية المتتابعة، التي جعلت الجماعة لا تفيق من محنة، إلا لتدخل في أخرى.

وبرغم هذا لم تلن قناة الإخوان للوعد والوعيد قبل المحن، ولا لانت قناتهم أثناء المحن، ولا لانت كذلك بعد المحن، لقد صبروا صبر الرجال، وثبتوا ثبات الأبطال، وإن شئت قلت: ثبات المؤمنين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ومن ضعف منهم يوماً ـ تحت أثقال الضغط والإرهاب ـ فقال كلمة من طرف لسانه، أو كتب كلمة من طرف قلمه، يداري بها الطواغيت، أو يرجو بها الخلاص من جبروت الطغاة، مترخصاً متأولاً، مثل قوله تعالى: **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾**(١)، واثقاً من نفسه بأنه لم يشرح بالكفر صدراً، ولم يخط في مدح الظلم سطراً، ولم يتخل عن الإسلام هدفاً.. من ضعف منهم يوماً ففعل

---

(١) النحل: آية ١٠٦هـ.

ذلك؛ سرعان ما ندم واستغفر، ورجع إلى نفسه باكياً متألماً، وإلى جماعته معتذراً متندماً، وإلى ربه قبل ذلك تائباً مستغفراً.

الجانب الاجتماعي:

ولقد رُبي الإخوان على أن العمل لخير المجتمع جزء من رسالة المسلم في الحياة، فقد أشار القرآن إلى أن هذه الرسالة ذات شعب ثلاث: شعبة تجسد العلاقة بالله في العبادة، وشعبة تجسد العلاقة بالمجتمع في فعل الخير، وشعبة تجسد العلاقة بالأعداء في الجهاد.

وفي هذا يقول الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، وجاهدوا في الله حق جهاده﴾(١).

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا المعنى، وتبين أن على كل مسلم في كل يوم ضريبة، أو زكاة إجتماعية، يؤديها من ماله أو جاهه، أو بدنه أو فكره أو لسانه.

روى البخاري عن أبي موسى، أن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة. قيل: أرأيت إن لم يجد، قال: يعتمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق. قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف أو

---

(١) الحج: ٧٧- ٧٨. (٤- التربية الإسلامية)

الخير. قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة» رواه البخاري ومسلم.

ومن هنا، كان كل «أخ مسلم» عضواً نافعاً في جماعته، يفعل الخير، ويدعو إليه، ويكره الشر، وينهى عنه، يساعد الفقير، ويأخذ بيد الضعيف، ويعلم الجاهل، وينبه الغافل، ويخوف العاصي، ويذكّر الناسي، ويعود المريض، ويشيع الميت، ويعزي أهله، ويكرم اليتيم، ويحض على طعام المسكين، ويشارك في كل عمل ينهض بالمجتمع، إن لم يكن هو السباق له والداعي إليه.

وكانت شعب الإخوان كلها دوراً للإصلاح الإجتماعي، ومراكز لخدمة الشعب، بكل الوسائل المتاحة، من تعليم، إلى تدريب، إلى علاج، إلى رعاية إجتماعية، إلى إرشاد ديني وصحي.

وكانت «أقسام البر والخدمة الإجتماعية» في شعب الإخوان، تنشىء المستوصفات الطبية للعلاج بأجور رمزية، أو بغير أجر للمحتاجين، وتجمع الزكوات والصدقات لتوزيعها على المستحقين، وتفتح الفصول لمحو الأمية، وتنشىء المدارس لتحفيظ القرآن، وتعليم الكبار، وتبني المساجد الجديدة، أو تصلح المساجد القديمة، لتقوم بدورها في العبادة والهداية، وتؤلف اللجان لإصلاح ذات البين، وتسهم في حل المشكلات التي تواجه الجماعة، وتذليل العقبات التي تعترض طريق رقيها وصلاحها.

وفلسفة الإخوان في هذا واضحة مستمدة من طبيعة الإسلام نفسه، وتصوره للفرد المسلم، وللجماعة المسلمة. ولكن بعض الناس،ـ (حزب التحرير)،ـ أنكروا على الإخوان إشتغالهم بهذا الجانب الاجتماعي، بحجة أن هذا يشغل عن نشر الدعوة من ناحية، كما أنه ترقيع جزئي لا يجدي، إلا أنه يخدر المجتمع عن المطالبة والسعي لإقامة الدولة الإسلامية.

وغفل هؤلاء عن حقائق هامة:

١ـ إن فعل الخير جزء لا يتجزأ من مهمة المسلم، التي أمره الله بها، كما بيناه بأدلته من القرآن والسنة، فهو مأمور بفعل الخير والدعوة إليه، كما هو مأمور بالصلاة والعبادة.

٢ـ إن المسلم عضو حي في جسم مجتمعه، لا بد أن يحس بآلامه، فلا بد أن يعمل على إزالتها، أو على الأقل تخفيفها، ولا يسعه أن يقف متفرجاً أمام جائع أو مريض، وهو يقدر على إعانته أو إسعافه.

٣ـ إن عمل الخير نفسه لون من ألوان نشر الدعوة، فالدعوة كما تنشر باللسان والقلم، تنشر بالإحسان والعمل، وهذا ما تحرص عليه الإرساليات التبشيرية وأمثالها.

٤ـ إن في الجماعات طاقات تقدر على خدمة المجتمع، ولا تقدر على العمل الفكري أو التربوي، فمن الخير ألا تترك فارغة.

الجانب السياسي :

ومن الجوانب الهامة التي عنيت بها التربية الإخوانية: الجانب السياسي. ونعني بهذا الجانب ما يتصل بشؤون الحكم، ونظام الدولة، والعلاقة بين الحكومة والشعب. والعلاقة بين الدولة وغيرها من الدول، إسلامية وغير إسلامية، والعلاقة بالمستعمر الغاصب.. وغير ذلك من القضايا العديدة المتنوعة.

وقد كان هذا الجانب قبل دعوة حسن البنا وقيام مدرسته، بعيداً عن اهتمام الجماعات الإسلامية ، وبتعبير أصح : الجماعات الدينية، وخارج نطاق نشاطها وتفكيرها. فقد أصبح مفهوم السياسة مقابلاً لمفهوم الدين، كما يقابل الأسود الأبيض، فلا يتصور إجتماعهما في شخص أو في جماعة، والناس رجلان : إما رجل دين، وإما رجل سياسة، والجماعات نوعان : إما جماعة دينية، وإما جماعة سياسية.

وحرام على رجل الدين أن يشتغل بالسياسة، كما يحرم على رجل السياسة أن يشتغل بالدين، ومثل ذلك تدخل الجماعة الدينية في الشؤون السياسية، أو الجماعة السياسية في شؤون الدين. وقد يتجاوز ويتسامح في تدخل رجل السياسة، أو جماعة السياسة في الدين، أما الذنب الذي لا يغتفر، ولا يتسامح فيه عند الناس يومئذ، فهو أن يتدخل رجل الدين أو الجماعة الدينية، في القضايا السياسية.

وعلى هذا الأساس، قامت في مصر- كما في غيرها- جماعات دينية الطابع، كالطرق الصوفية، والجمعيات المختلفة، التي تنص في صلب لوائحها وأنظمتها الأساسية: أنها لا صلة لها بالسياسة.

وتقابلها تجمعات أخرى لا شأن لها بالدين، وهي التي أطلق عليها اسم «الأحزاب»، مثل الحزب الوطني، أو حزب الأمة، أو حزب الوفد، وما انشق عنه، وحزب الدستور وغيرها. فهذه الأحزاب تشترك كلها في طابعها «العلماني»، ففكرها النظري، وسلوكها التطبيقي، قائمان على أساس عزل الدين عن الدولة، وفصل الدولة عن الدين.

كما تؤمن كلها بالوطنية الإقليمية الضيقة، التي قامت تحيي نزعات جاهلية قديمة، كالفرعونية في مصر، والفينيقية في سورية، والآشورية في العراق.. ومن لم يؤمن منها بالنزعة الوطنية، آمن بالنزعة القومية مثل: القومية الطورانية في تركية، والقومية العربية في بلاد العرب، والقومية السورية في سورية الكبرى.

كان على «حسن البنا» أن يخوض معركة حامية الوطيس، لمطاردة المفاهيم الخاطئة عن العلاقة بين الدين والسياسة، تلك المفاهيم التي غرسها الجهل والهوى، وتعهدها الإستعمار الثقافي بالسعي والرعاية، حتى تغلغلت جذورها وامتدت فروعها.

وكان لا بد من حرب الفكرة الخاطئة بالفكرة الصحيحة، وهي «شمول الإسلام» لكل جوانب الحياة.. ومنها السياسة، كما

دل على ذلك القرآن والحديث، وهدي الرسول وسيرة الصحابة، وعمل الأمة كلها طوال ثلاثة عشر قرناً أو تزيد.

وللإمام الشهيد في ذلك كلمات، تكاد تكون محفوظة لدى جمهور الإخوان، من ذلك قوله في إحدى رسائله:

«إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: نحن ندعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه.

فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام، ونحن لا نعرف هذه الأقسام»!

وتقوم التربية السياسية لدى مدرسة «حسن البنا» على جملة دعائم، أهمها:

١ـ تقوية الوعي والشعور بوجوب تحرير الأرض الإسلامية من كل سلطان أجنبي، وإجلاء المستعمر الغاصب عن ديار الإسلام بكل وسيلة مشروعة، إبتداء بالوطن الصغير، وادي النيل شماله وجنوبه ـ مصر والسودان ـ فالوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج، وأشهد أن هذا التحديد للوطن العربي، كان أول ما سمعته من الإمام البنا رضي الله عنه.. فالوطن الإسلامي الأكبر من المحيط إلى المحيط: من الهادىء إلى الأطلسي: من أندونيسيا وما جاورها شرقاً، إلى مراكش غرباً.

وبهذا الفهم، اتسع أفق «الأخ المسلم»، ليسع الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، فضلاً عن الأمة العربية. فلم يحبس نفسه في قمقم الوطنية الضيقة، أو القومية المتعصبة، شأن الأحزاب السياسية السائدة في تلك الأيام.

ومن هنا، اهتم الإخوان في مصر بقضية بلدهم الذي يعيشون فيه، ومطالبه الوطنية التي تمثلت في جلاء الإنجليز عن مصره وسودانه، ووحدة وادي النيل، وعقد الإخوان لذلك مؤتمرات كبرى في كافة محافظات مصر ومدنها الكبيرة، لتوعية أبناء الشعب بمطالبه، وأعلن هنا أني لم أفهم هذه المطالب حق الفهم، إلا من لسان حسن البنا، حين وقف في مؤتمر طنطا يشرحها، ويردها إلى أصولها.

وكان الإمام الشهيد في هذه المؤتمرات يوضح الأهداف، ويوضح معها الوسائل الواجب اتخاذها، من المطالبة لدى الهيئات الدولية، وكسب الرأي العام العالمي، إلى المقاطعة الإقتصادية لسلع المستعمر ومنتجاته، إلى التعبئة وإعلان الجهاد المقدس، فإما أن نعيش سعداء أحراراً، وإما أن نموت شهداء أبراراً.

ولا زلت أذكر المرشد الشهيد، وهو يتحدث في هذا المؤتمر عن سلاح المقاطعة وأثره الفعال، وقدرة الشعب المصري على استخدام هذا السلاح، وأننا شعب قنوع صبور، قادر في ساعة الجد أن يقنع بالقليل، ويرضى باليسير، ذاكراً في ذلك من الأمثال الشعبية ما يؤيد

هذه الوجهة ومستشهداً ببعض الوقائع التاريخية القريبة لدى بعض الشعوب الإسلامية.

ومما قال يومئذ: «سنخرج للشعب فتاوى ابن حزم المخبوءة في بطون الكتب، من أن العدو المشرك نجس كله، لا يجوز مسه، ولا التعامل معه: ﴿إنما المشركون نجس﴾[١].

وزاد حسن البنا على ذلك، فطالب الإخوان خاصة، والمسلمين عامة في وادي النيل، بأن يقنتوا في الركعة الأخيرة من كل صلاة، وبخاصة الصلوات الجهرية، وبعد القيام من الركوع، «قنوت النوازل»، بأن يدعوا الله عندما تشتد الأزمات عليهم، أن يفرج الله عنهم الكربة، ويكشف الغمة، إقتداء بالنبي ـ ﷺ ـ حينما كان يدعو في صلواته على المشركين المعتدين، وللمسلمين المستضعفين. وليس هناك أزمة أشد من فقد الحرية والإستقلال، وتحكم الكافر في رقبة المسلم، مع أن الله تعالى يقول: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[٢]، ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾[٣].

وقد وضع الإمام البنا صيغة للدعاء في هذا القنوت، يدعو بها وبمثلها المصلون، لا زلت أحفظها من كثرة ما دعوت بها في الصلاة،

---

(١) التوبة: آية ٢٨:
(٢) المنافقون: آية ٨.
(٣) النساء: آية ١٤١.

على رغم مرور ثلث قرن من الزمان: «اللهم رب العالمين، وأمان الخائفين، ومذل المتكبرين، وقاصم الجبارين، تقبل دعاءنا، وأجب نداءنا. اللهم إنك تعلم أن هؤلاء الغاصبين من الإنجليز قد احتلوا أرضنا، وغصبوا حقنا.. وطغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد.. اللهم فرد عنا كيدهم، وفك حدهم، وأذل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، وخذهم ومن والاهم أو عاونهم أو ناصرهم أخذ عزيز مقتدر.. اللهم ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين».

وبهذا لم تعد القضية الوطنية شيئاً في حاشية شعور الأخ المسلم، أو على هامش حياته، بل إنها حاضرة في وعيه وحسه، تصاحبه في بيته ومسجده، وخلوته وجلوته، وتحيا في أعماق كيانه واضحة حية ملتهبة.

ولهذا لم يكن الإنجليز يخافون شيئاً كما يخافون من هؤلاء «المتعصبين» لدينهم، ويخشون أن يتحول الشعور الوطني إلى شعور إسلامي متأجج، لا يعبأ بشيء في سبيل غايته، ولا يبالي: أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

ولا ريب أن تكون هذه المواقف العقائدية للحركة الإسلامية ومؤسسها، وراء مؤامرات الكيد لها عند الحكومات الوطنية العلمانية، كما أثبت ذلك إجتماع سفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا، في قاعدة «فايد» العسكرية بمنطقة «القناة» سنة ١٩٤٨ م، الذي

طالب حكومة النقراشي باشا، رئيس الحزب السعدي المصري، بحل جماعة الإخوان المسلمين. وكان ما كان.

كانت هذه بعض ملامح من تربية الإخوان، فيما يتعلق بوطنهم الصغير: وادي النيل. ولم يشغلهم ذلك عن الإهتمام بقضايا وطنهم العربي الكبير، ووطنهم الإسلامي الأكبر. وأولى هذه القضايا بغير شك، كانت قضية أرض النبوات، ومهد الرسالات، أرض أولى القبلتين، وثالث المسجدين الشريفين: قضية فلسطين، التي عُني بها الإخوان في وقت مبكر، ونوهوا بشأنها ، ونبهوا على خطرها، وأصدروا من أجلها بياناتٍ ونشرات، وأعداداً خاصة من مجلتهم، وعقدوا الندوات والمؤتمرات في سبيلها، وطالما إنتهزوا فرصة ذكرى «وعد بلفور»، في الثاني من نوفمبر من كل عام، لإخراج المسيرات، وتسيير المظاهرات ، توعية للرأي العام، وإيقاظاً للشعور بأهمية القضية. ومن قرأ مجلات الإخوان القديمة، «في الثلاثينات»، رأى من ذلك العجب العجاب.

كانت الرؤية واضحة لدى كل أخ مسلم بقضية فلسطين، وكان إحساسه بها حياً دافقاً، في الوقت الذي كان جمهور الناس في مصر لا يشعرون بأهمية هذه القضية، ولا بخطر اليهودية الطامعة المتوثبة بجوارهم ، حتى قال رئيس حكومة مصرية يوماً، وقد سئل عن رأيه في ذلك: أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين!

وكانت خطب الإمام الشهيد، ومحاضراته عن فلسطين،

و لاته النارية في مجلات الإخوان، وصحيفتهم اليومية، مثل: صناعة الموت. . وفن الموت. . ه‍ ‍ي يا رياح الجنة. . وغيرها، تهيء الأنفس ليوم آت لا ريب فيه. فلما جاء هذا اليوم، ونادى المنادي أن حي على الجهاد، آتت هذه التربية والتوعية اكلها، وتجلت آثارها في إقبال الألوف من شباب الإخوان، بل من شيوخهم أحياناً، على مكاتب التطوع للجهاد في سبيل الأر‍ ‍ض المقدسة، وكانت معارك الجهاد والبطولة والإستشهاد في سبيل الله، مما يعرفه اليهود أنفسهم أكثر من غيرهم.

ولم ينس الإخوان قضايا سورية ولبنان في المشرق العربي. . ولا قضايا الشمال الإفريقي أو المغرب العربي: تونس والجزائر ومراكش، وقد كان المركز العام للإخوان ، بمثابة «دار العائلة» لزعماء هذه البلاد وقادة التحرير فيها.

وقل مثل ذلك بالنسبة لقضايا التحرير في البلاد الإسلامية كلها، مثل أندونيسيا وغيرها، فقد كان الإخوان يعتبرونها قضاياهم، ويحيون فيها فكراً وشعوراً، وإن بعدت عن أبدانهم الدار، وشط المزار.

٢ـ الدعامة الثانية: إيقاظ الوعي والشعور بفرضية إقامة «الحكم الإسلامي» وضرورته، فهو فريضة شرعية، وضرورة قومية وإنسانية.

أما أنه فريضة ، فقد أوجب الله على الحكام والمحكومين أن

يرجعوا إلى حكمه، وحكم رسوله في كل شؤونهم، ولم يجعل لها في ذلك خياراً بموجب عقد الإيمان في صدورهم.

فأما الحكام، فحسبنا قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾(١).. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾(٢).. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾(٣).

وأما المحكومون فحسبنا قول الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾(٤).

وحسب الجميع قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾(٥)، ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون﴾(٦).

وأما أنه ضرورة قومية وإنسانية، فلأن أمتنا خاصة، والبشرية عامة، جربت الفلسفات البشرية، والأنظمة الوضعية، فلم تجن من ورائها السعادة التي ترجوها، والحياة الطيبة التي تنشدها، بل فقدت

(١، ٢، ٣) المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧.
(٤) النساء: آية ٦٥.
(٥) الأحزاب: آية ٣٦.
(٦) النور: آية ٥١.

كل معنى جميل تسعى إليه وتحرص عليه. فقد الفرد سكينة نفسه، وفقدت الأسرة إستقرارها وترابطها، وفقد المجتمع تماسكه وتوازنه، وفقد العالم كله أمنه وسلامه.

ولا بد للبشرية من طب جديد يعالج أدواءها، دون أن يجلب عليها أمراضاً جديدة.

إذا إستشفيت من داء بداء
فاقتل ما أعلك ما شفاك!

وليس هذا الطب الجديد إلا الإسلام، الذي جمع الله فيه بين مصالح الدنيا والآخرة، بين مطالب الجسم وتطلعات الروح.. بين حظ النفس وحق الله تعالى، بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة، ولا غرو فهو عدل الله بعباده، وشرعة الخالق لإصلاح خلقه: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[1].

وقد آكد حسن البنا على هذا المعنى الأساسي في كل رسائله وكافة محاضراته: المطالبة بحكم القرآن، وإقامة دولة الإسلام، محاربا بذلك الفكرة «العلمانية» الخبيثة الدخيلة، التي تنادي بفصل لدين عن الدولة في الحكم والتشريع، والتعليم والإعلام، وغيرها، فلئن جاز هذا في عرف النصرانية التي يقول إنجيلها: «دع ما لقيصر

---

(١) الملك: اية ١٤.

لقيصر، وما لله لله»! لا يجوز ذلك أبداً في عرف الإسلام ، الذي لا يقبل قسمة الحياة ولا قسمة الإنسان بحال من الأحوال، بل يعتبر قيصر وما لقيصر، والحياة كلها والإنسان كله، لله الواحد القهار.

يقول الإمام الشهيد في رسالته «إلى الشباب» : «نريد (الحكومة المسلمة)، التي تقود الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدي الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ: أبي بكر وعمر من قبل. ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي لا يرتكز على أساس الإسلام، ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية، ولا بهذه الأشكال التقليدية، التي أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها.. وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامي بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام».

وفي «رسالة المؤتمر الخامس»، يعرض لهذه النقطة بمزيد من الإيضاح والبيان، فيجيب عن تساؤلات الناس عن «موقف الإخوان من الحكم » فيقول:

«ويتساءل فريق آخر من الناس: هل في منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة، وأن يطالبوا بالحكم؟ وما وسيلتهم إلى ذلك؟ ولا أدع هؤلاء المتسائلين أيضاً في حيرة، ولا نبخل عليهم بالجواب، فالإخوان المسلمون يسيرون في جميع خطواتهم وآمالهم وأعمالهم ، على هدي الإسلام الحنيف كما فهموه، وكما أبانوا عن

فهمهم هذا في أول هذه الكلمة. وهذا الإسلام الذي يؤمن به الإخوان المسلمون، يجعل الحكومة ركناً من أركانه، ويعتمد على التنفيذ، كما يعتمد على الإرشاد، وقديماً قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن». وقد جعل النبي ﷺ الحكم عروة من عرى الإسلام، والحكم معدود في كتبنا الفقهية، من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر. والمصلح الإسلامي، إن رضي لنفسه أن يكون فقيهاً مرشداً، يقرر الأحكام ويرتل التعاليم، ويسرد الفروع والأصول، وترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله، ويحملونها بقوة التنفيذ على مخالفة أوامره، فإن النتيجة الطبيعية، أن صوت هذا المصلح سيكون صرخة في وادٍ، ونفخة في رماد كما يقولون.

قد يكون مفهوماً أن يقنع المصلحون الإسلاميون برتبة الوعظ والإرشاد، إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله، وتنفيذاً لأحكامه، وإيصالاً لآياته وأحاديث نبيه ﷺ، وأما والحال كما نرى: التشريع الإسلامي في واد، والتشريع الفعلي والتنفيذي في واد آخر، فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم، جريمة إسلامية، لا يكفرها إلا النهوض واستخلاص قوة التنفيذ من أيدي الذين لا يدينون بأحكام الإسلام الحنيف. هذا كلام واضح لم نأت به من عند أنفسنا، ولكننا نقرر به أحكام الإسلام الحنيف، وعلى

هذا، فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم ، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء، وأداء هذه الأمانة والحكم، بمنهاج إسلامي قرآني، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه، وإن لم يجدوا، فالحكم من منهاجهم، وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أوامر الله.

وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم، ونفوس الأمة على هذا الحال، فلا بد من فترة تنشر فيها مبادىء الإخوان وتسود، ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة..

وكلمة لا بد أن نقولها في هذا الموقف، هي أن الإخوان المسلمين، لم يروا في حكومة من الحكومات التي عاصروها- لا الحكومة القائمة ، ولا الحكومة السابقة، ولا غيرهما من الحكومات الحزبية- من ينهض بهذا العبء، أو من يبدي الإستعداد الصحيح لمناصرة الفكرة الإسلامية، فلتعلم الأمة ذلك، ولتطالب حكامها بحقوقها الإسلامية، وليعمل الإخوان المسلمون.

وكلمة ثانية، أنه ليس أعمق في الخطأ من ظن بعض الناس، أن الإخوان المسلمين، كانوا في أي عهد من عهود دعوتهم، مطية حكومة من الحكومات، أو منفذين لغاية غير غايتهم، أو عاملين على منهاج غير منهاجهم ، فليعلم ذلك من لم يكن يعلمه من الإخوان ، ومن غير الإخوان».

ولا ينسى حسن البنا رحمه الله، في رسالته هذه الجامعة، إلى المؤتمر الخامس للإخوان ، أن يبين بصراحة موقف الحركة من استخدام القوة العسكرية، أو اللجوء إلى الثورة الشعبية العامة ، فيقول:

«ويتساءل كثير من الناس: هل في عزم الإخوان المسلمين، أن يستخدموا القوة في تحقيق أغراضهم، والوصول إلى غايتهم؟. وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسي، أو النظام الإجتماعي في مصر؟. ولا أريد أن أدع هؤلاء المتسائلين في حيرة، بل إني أنتهز هذه الفرصة، فأكشف اللثام عن الجواب السافر لهذا، في وضوح وفي جلاء، فليسمع من يشاء.

اما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته، فالقرآن الكريم ينادي في وضوح وجلاء: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[1]. والنبي ﷺ يقول: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف»، بل إن القوة شعار الإسلام حتى في الدعاء، وهو مظهر الخشوع والمسكنة، واسمع ما كان يدعو به النبي ﷺ، في خاصة نفسه، ويعلمه أصحابه، ويناجي به ربه: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». ألا ترى في هذه الأدعية أنه قد استعاذ بالله من كل

---

(١) الأنفال: آية ٦٠.

مظهر من مظاهر الضعف ـ ضعف الإرادة بالهم والحزن، وضعف الإنتاج بالعجز والكسل، وضعف الجيب والمال بالجبن والبخل، وضعف العزة والكرامة بالدين والقهر ـ فماذا تريد من إنسان يتبع هذا الدين إلا أن يكون قوياً في كل شيء، شعاره القوة في كل شيء؟ فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا أقوياء ، ولا بد أن يعملوا في قوة.

ولكن الإخوان المسلمين أعمق فكراً، وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصون إلى أعماقها، ولا يزنوا نتائجها، وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة، قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك قوة الوحدة والإرتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح. ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة، حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد والسلاح ، وهي مفككة الأوصال، مضطربة النظام، أو ضعيفة العقيدة، خامدة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك. هذه نظرة، ونظرة أخرى، هل أوصى الإسلام ـ والقوة شعاره ـ باستخدام القوة في كل الظروف والأحوال؟، أم حدد لذلك حدوداً، واشترط شروطاً، ووجه القوة توجيهاً محدوداً؟. ونظرة ثالثة، هل تكون القوة أول علاج، أم أن آخر الدواء الكي؟، وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة، ونتائجها الضارة، وما يحيط بهذا الإستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة، وليكن بعد ذلك ما يكون؟. هذه نظرات

يلقيها الإخوان المسلمون على أسلوب استخدام القوة، قبل أن يقدموا عليه، والثورة أعنف مظاهر القوة، فنظر الإخوان المسلمين إليها أدق وأعمق، وبخاصة في وطن كمصر، جرب حظه في الثورات، فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون. وبعد كل هذه النظرات والتقديرات، أقول لهؤلاء المتسائلين، إن الإخوان المسلمين، سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة ، سيكونون شرفاء صرحاء، سينذرون أولاً ، وينتظرون بعد ذلك، ثم يقدمون في كرامة وعزة، ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا، بكل رضاء وارتياح. أما الثورة ، فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها، وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر، بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال، ولم يفكر أولوا الأمر في إصلاح عاجل، وعلاج سريع لهذه المشاكل ، فسيؤدي ذلك حتماً إلى ثورة، ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم، ولكن من ضغط الظروف ومقتضيات الأحوال، وإهمال مرافق الإصلاح، وليست هذه المشاكل التي تتعقد بمرور الزمن، ويستفحل أمرها بمضي الأيام، إلا نذيراً من هذه النذر، فليسرع المنقذون بالأعمال».

٣ـ الدعامة الثالثة: إيقاظ الوعي والشعور بوجوب الوحدة الإسلامية وضرورتها. فهي أيضاً فريضة دينية، وضرورة دنيوية.

أما فريضتها ، فلأن الله جعل المسلمين «أمة واحدة»، يسعى

بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[1].

كما أوجب الإسلام أن يكون للمسلمين- حيثما كانوا، ومهما اتسعت أقطارهم- «إمام» واحد، هو رأس دولتهم، ورمز وحدتهم، حتى أن «من مات وليس في عنقه بيعة لإمام، مات ميتة جاهلية». رواه مسلم.

وأما ضرورة هذه الوحدة، فلما هو معلوم من أن الإتحاد قوة، والتفرق ضعف، فاللبنة الواحدة بمفردها ضعيفة، ولكن اللبنة إلى اللبنة، تكون بنياناً متيناً، يشد بعضه بعضاً، يصعب هدمه أو النيل منه.

ولهذا، رأينا الإمام الشهيد ينادي بالوحدة الإسلامية، ويدعو إلى التفكير بجد لإعادة الخلافة، وينتهز كل فرصة لتأكيد هذه المعاني، وتثبيتها في عقول الإخوان وقلوبهم، حتى يشب عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير.

وهو لا يرى تنافياً بين الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، والدعوة إلى الوحدة الوطنية، أو الوحدة العربية، إذا فهمت كل منها الفهم السليم، ووضعت في موضعها الصحيح.

إستمع إليه في: «رسالة المؤتمر الخامس»، وهو يبين موقف

---

(١) المؤمنون: آية ٥٢.

الإسلام- وبالتالي موقف الإخوان- من هذه الألوان أو المراتب ، من الوحدة (الوطنية والعربية والإسلامية) فيقول:

«إن الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها، أن يعمل كل إنسان لخير بلده، وأن يتفانى في خدمته، وأن يقدم أكبر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها، وأن يقدم في ذلك الأقرب فالأقرب، رحماً وجواراً، حتى أنه لم يجز أن تنقل الزكوات أبعد من مسافة القصر، إلا لضرورة، إيثاراً للأقربين بالمعروف، فكل مسلم مفروض عليه أن يسد الثغرة التي هو عليها، وأن يخدم الوطن الذي نشأ فيه، ومن هنا، كان المسلم أعمق الناس وطنية، وأعظمهم نفعاً لمواطنيه، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين، وكان الإخوان المسلمون، أشد الناس حرصاً على خير وطنهم، وتفانياً في خدمة قومهم، وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة المجيدة، كل عزة ومجد، وكل تقدم ورقي، وكل فلاح ونجاح، وقد انتهت إليها رياسة الأمم الاسلامية، بحكم ظروف كثيرة، تضافرت على هذا الوضع الكريم.

ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربياً، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان، يوم كان المسلمون مسلمين. وقد جاء في الأثر: «إذا ذل العرب ذل الإسلام»، وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي ، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم، من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام

وحراسه. وأحب هنا أن أنبه إلى أن الإخوان المسلمين، يعتبرون العروبة كما عرفها النبي ﷺ، فيما يرويه إبن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا إن العربية اللسان. ألا إن العربية اللسان». ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لابد منه، لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته، وإعزاز سلطانه. ومن هنا، وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية، وتأييدها ومناصرتها، وهذا هو موقف الإخوان المسلمين من الوحدة العربية.

بقي علينا أن نحدد موقفنا من الوحدة الإسلامية. والحق أن الإسلام، كما هو عقيدة وعبادة، هو وطن وجنسية، وأنه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس. فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1]، والنبي ﷺ يقول: «المسلم أخو المسلم»، «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم».

فالإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية، ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية، ويعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة، ويعتبر الوطن الإسلامي وطناً واحداً، مهما تباعدت أقطاره، وتناءت حدوده، وكذلك الإخوان المسلمون، يقدسون هذه الوحدة، ويؤمنون بهذه الجامعة، ويعملون لجمع كلمة المسلمين، وإعزاز أخوة الإسلام، ينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم

---

(١) الحجرات: آية ١٠.

يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويرد الإمام البنا على اليائسين والمؤئسين من توحيد كلمة المسلمين، الذين يقولون: إن هذا غير ممكن، والعمل له عبث لا طائل تحته، ومجهود لا فائدة منه، وخير للذين يعملون لهذه الجامعة أن يعملوا لأقوامهم، ويخدموا أوطانهم الخاصة بجهودهم، بأن هذه لغة الضعف والاستكانة:

«فقد كانت هذه الأمم مفرقة من قبل، متخالفة في كل شيء: في الدين واللغة، والمشاعر والآمال، فوحدها الإسلام وجمع قلوبها على كلمة سواء، وما زال الإسلام كما هو، بحدوده وبرسومه، فإذا وجد من أبنائه من ينهض بعبء الدعوة إليه، وتجديده في نفوس المسلمين، فإنه يجمع هذه الأمم جميعاً من جديد، كما جمعها من قديم، والإعادة أهون من الإبتداء، والتجربة أصدق دليل على الإمكان.

وضح إذن، أن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة، باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأساً بأن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه في الوطن على سواه، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية، باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية، باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام. وليَ أن أقول بعد هذا، إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله، فهم ينادون بالوحدة العالمية، لأن هذا هو مرمى الإسلام

وهدفه، ومعنى قول الله تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1].

وانا في غنى بعد هذا البيان عن أن أقول، إنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الإعتبار، وبأن كلًا منها تشد أزر الأخرى، وتحقق الغاية منها، فإذا أراد أقوام أن يتخذوا من المناداة القومية الخاصة، سلاحاً يميت الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم، ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس.

ولعل من تمام هذا البحث، أن أعرض لموقف الإخوان المسلمين من الخلافة، وما يتصل بها، وبيان ذلك أن الإخوان يعتقدون أن الخلافة رمز الوحدة الإسلامية، ومظهر الارتباط بين أمم الإسلام، وأنها شعيرة إسلامية، يجب على المسلمين التفكير في أمرها والإهتمام بشأنها، والخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله. ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها، على النظر في تجهيز النبي ﷺ ودفنه، حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا إلى إنجازها

والأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام، وبيان أحكام الإمامة، وتفصيل ما يتعلق بها، لا تدع مجالاً للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم، منذ حورت عن مناهجها، ثم ألغيت بتاتاً إلى الآن. والإخوان المسلمون لهذا،

---

(١) الأنبياء: آية ١٠٧.

يجعلون فكرة الخلافة والعمل لإعادتها في رأس مناهجهم، وهم مع هذا يعتقدون، أن ذلك يحتاج إلى كثير من التمهيدات التي لا بد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة، لا بد أن تسبقها خطوات».

هذه معالم التربية السياسية للإخوان ، إنها تربية جديدة، تخالف التربية التي كانت تقوم عليها الأحزاب والمنظمات السياسية، إن صح أن كان لديها تربية من نوع ما.

كانت تربية الإخوان تربية إسلامية خالصة، لأنها تستمد مقوماتها ومفاهيمها من الإسلام وحده، وكانت تربية إيجابية واعية، تقوم على الفهم لا التهريج، وعلى العمل لا الكلام، وعلى البناء لا الهدم، وعلى الحق لا الهوى، وعلى التضحية وإنكار الذات، لا على المغانم واتباع الشهوات.

* * *

الإيجَابيّــة وَالبــنَاء

كما تميزت التربية الإسلامية لدى الإخوان، بالتأكيد والتركيز على الجانب الإيماني أو الرباني، وبالتكامل والشمول في جوانب التربية، تميزت كذلك بخصيصة هامة، هي الإتجاه إلى الإيجابية والبناء.

كان «حسن البنا» مؤسس الحركة، له من اسمه نصيب أي نصيب، فكان حقاً رجل بناء لا رجل هدم، ورجل عمل لا رجل كلام، ورجل واقع لا رجل خيّال.

لهذا، اتجه بطاقته وطاقات الإخوان من حوله، إلى الإيجابية والإنتاج، بدل الإشتغال بلغو القول، ولهو الحديث، وعبث الصبيان، والبحث عن عيوب الآخرين، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

إن الإسلام يريد من المسلم أن يكون همه الفعل قبل القول، فلا يقول إلا ليعمل، ولا يعمل إلا ليتقن، حتى لا يتوجه إليه تقريع الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون. كبر مقتاً عند

الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[1]. وعمل المسلم ليس مهملاً ولا مضيعاً، إنه مقدور ومعتبر عند الله وعند الناس: **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾**[2].

يكره الإسلام للمسلم أن يشتغل بما لا يعنيه، وأن يصرف وقته في التافه من الأمور، أو الخوض في الباطل من القول، أو حضور الزور من الفعل، أو الرد على إساءات الآخرين، ولهذا وصف الله المؤمنين بقوله: **﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾**[3]، **﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾**[4].

ووصف عباد الرحمن بقوله: **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾**[5]، **﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾**[6] وفي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وقد اعتبر علماء السنة هذا الحديث، أحد أحاديث أربعة يقوم عليها بناء الإسلام.

ويكره الإسلام للمسلم أن يصرف أصغريه ـ قلبه ولسانه ـ إلى السب واللعن للناس أو للأشياء، فليس المسلم سباباً ولا لعاناً.

---

(١) الصف: ٢ ـ ٣.
(٢) التوبة: آية ١٠٥.
(٣) المؤمنون: آية ٣.
(٤) القصص: آية ٥٥.
(٥) الفرقان: آية ٦٣.
(٦) الفرقان: آية ٧٢.

ولهذا جاءت جملة أحاديث وفيرة عن النبيﷺ، كلها تقول: «لا تسبوا» منها: «لا تسبوا الموتى فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»، «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»، «لا تسبوا الريح فإنها مأمورة»، «لا تسبوا الحمى فإنها كفارة الخطايا»،«لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة».

وأعجب من ذلك، النهي عن سب الشيطان ذاته، مع ثبوت عداوته للإنسان، وطرده من رحمة الله مذموماً مدحوراً. روى النسائي والطبراني والحاكم عن بعض الصحابة قال: «كنت رديف النبيﷺ، فعثر بعيرنا، فقلت تعس الشيطان! فقال لي النبي ﷺ: لا تقل تعس الشيطان، فإنه يعظم حتى يصير مثل البيت ويقول: بقوتي! (أي: صرعته بقوتي) ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يصير مثل الذباب!».

إن سب الشيطان عمل سلبي لا يؤذي الشيطان نفسه، بل يسره ويرضي غروره، وإنما يؤذي الشيطان ويغيظه، أن يتجه الإنسان إلى عمل إيجابي، كأن يذكر الله تعالى ويقول: «بسم الله»، فهذا يجعله يتضاءل ويصغرحتى يغدو كالذباب.

في ضوء هذه المعاني الإسلامية الخالصة، وعلى مثل هذه الروح الإيجابية البناءة، كانت تربية حسن البنا للإخوان، وكانت توجيهاته إليهم في شتى المناسبات، وبمختلف الوسائل.

لقد حرص على تجنيبهم السلبية والتواكل، والإستسلام والتشاؤم وروح المراء والجدل العقيم، وفتح لهم مجالات العمل،

ليصرفوا فيها طاقاتهم، ويبذلوا جهودهم، وهي مجالات كثيرة ومتنوعة، وجديرة بأن تستغرق الأوقات، وتستنفد القدرات، وأن تتعلق بها همم المؤمنين، وتشرئب إليها أعناق المجاهدين.

إستمع إليه في رسالة «التعاليم»، وهو يشرح حقيقة العمل ومراتبه، يوضح الركن الثالث من أركان «البيعة» بعد الفهم والإخلاص، يقول: «وأريد بالعمل.. ثمرة العلم والإخلاص» ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾[1].

ومراتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق:

١ـ إصلاح نفسه حتى يكون: قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادراً على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهداً لنفسه، حريصاً على وقته، منظمًا في شؤونه، نافعاً لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدة.

وتكوين بيت مسلم: بأن يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام، في كل مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد والخدم، وتنشئتهم على مبادىء الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حدة كذلك.

---

(١) التوبة: آية ١٠٥

٣- **وإرشاد المجتمع**: بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات، وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائمًا. وذلك واجب كل أخ على حدته، وواجب الجماعة كهيئة عاملة.

٤- **وتحرير الوطن**: بتخليصه من كل سلطان أجنبي- غير إسلامي - سياسي أو إقتصادي أو روحي.

٥- **وإصطلاح الحكومة**: حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة، وأجير عندها، وعامل على مصلحتها. والحكومة إسلامية، ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام، غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه....

٦- **وإعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية**: بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافاتها، وجمع كلمتها، حتى يؤدي ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة، والوحدة المنشودة.

٧- **وأستاذية العالم**: بنشر دعوة الإسلام في ربوعه، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة، تجب على الجماعة متحدة، وعلى كل أخ باعتباره عضواً في الجماعة وما أثقلها تبعات، وما

أعظمها مهمات، يراها الناس خيالاً، ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبداً، ولنا في الله أعظم الأمل، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وهو في توجيهه وتثقيفه للإخوان، يعلمهم أن يعنوا بالكليات قبل الجزئيات، وبالأصول قبل الفروع، وأن يهتموا بالواقع وقضاياه، وبالمسائل العلمية، ولا يستغرقهم البحث فيما لا ثمرة له، أو لا طائل تحته.

ولهذا يقول في الأصول العشرين، «الأصل التاسع»:

«كل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعاً، ومن ذلك: كثرة التعريفات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية، التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب ـ رضوان الله عليهم ـ وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته، وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة».

ويبين أن الإختلاف بين الفقهاء في فروع الأحكام الشرعية، أمر تفرضه طبيعة الدين، وطبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وأنه لا خطر منه.

وإنما الخطر في التعصب والتفرق والعداوة. يقول في «الأصل الثامن»:

«والخلاف الفقهي في الفروع، لا يكون سبباً للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء، ولكل مجتهد أجره. ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف، في ظل الحب في الله، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب».

وبهذا كله، وفر على الإخوان إضاعة الأوقات والجهود، في التعصب للآراء، أو في بحث ما لا جدوى فيه، وصرفها إلى ما ينفع الناس ويمكث في الأرض.

وكان لحسن البنا عشر وصايا مركزة، تكاد تكون محفوظة لدى الإخوان، وكلها حث على الإيجابية والعمل والبناء، وتحذير من الفراغ والسلبية والهدم.

يقول في هذه الوصايا:

١ـ قم إلى الصلاة متى سمعت النداء مهما كانت الظروف.

٢ـ أتل القرآن، أو طالع، أو استمع، أو اذكر الله، ولا تصرف جزءاً من وقتك في غير فائدة.

٣ـ اجتهد أن تتكلم العربية الفصحى، فإن ذلك من شعائر الإسلام.

٤ـ لا تكثر الجدل في أي شأن من الشؤون، أياً كان، فإن المراء لا يأتي بخير.

٥ـ لا تكثر الضحك، فإن القلب الموصول بالله ساكن وقور.

٦ـ لا تمزح، فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد.

٧ـ لا ترفع صوتك أكثر مما يحتاج إليه السامع، فإنه رعونة وإيذاء.

٨ـ تجنب غيبة الأشخاص، وتجريح الهيئات، ولا تتكلم إلا بخير.

٩ـ تعرف على من تلقاه من إخوانك، وإن لم يطلب منك ذلك، فإن أساس دعوتنا، الحب والتعارف.

١٠ـ الواجبات أكثر من الأوقات، فعاون غيرك على الإنتفاع بوقته، وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها.

ومن معاني الإيجابية في تربية الأخ المسلم: ألا يكون همه التلذذ بالعبادة الشخصية، والإنحصار في الأنس بالذكر، والمتعة بالفكر، من غير التفات إلى أمراض المجتمع ومشكلات الناس، وما فشا بينهم من انحراف في العقيدة، وابتداع في العبادة، وانحلال في الخلق، وانهيار في التماسك، فيقف من هذا كله موقف المتفرج المستسلم، أو المتحسر المتندم، أو القانط اليائس، أو النائح المولول، دون أن يقوم بخطوة إيجابية لإصلاح الفساد، وتقويم العوج، ودعوة الأشرار إلى الخير، والمبتدعين إلى الإتباع، والمنحرفين إلى الإستقامة، والمتكاسلين إلى العمل، والفاترين إلى الحماس.

إن الواجب في تربية الأخ المسلم أن يجعل الدعوة أكبر همه، ومحور حياته، وغاية سعيه، وأن يعتبر هداية فرد واحد إلى الإسلام، خيراً له مما طلعت عليه الشمس وغربت، وأن الدعوة إلى الله هي طريق الرسل، وخلفائهم، وأنها أكرم وظيفة في الحياة. ولهذا كان شعار الإخوان دائماً: أصلح نفسك وادع غيرك، ولا انفصال بينهما: **﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين﴾**[1].

ولم تكن الدعوة التي نشأ عليها الإخوان، تقف عند صورة واحدة، أو أسلوب معين، بل على كل أخ أن يدعو من حوله، ومن يستطيع، بالوسيلة التي يقدر عليها، ويراها مؤثرة في مدعويه، من خطبة أو محاضرة، أو حديث أو مناقشة عادية، أو تصرف حسن، أو موقف إيماني صامت.

وكان على كل أخ، أن يكون حيث ينزل، للإخوان داراً أو رجالاً، وهم أهم من الدار، حتى شاع هذا القول بينهم: «علامة الرجل الصالح أن يترك في كل مكان يحل فيه أثراً صالحاً».

وكان كل أخ مسلم بحكم تكوينه داعية، مؤثراً في محيطه بقوله وعمله، حتى كان بعض العمال والفلاحين والتجار من الإخوان، إذا تحدثوا عن الدعوة، حسبهم السامع من خريجي الأزهر أو الجامعات، لأنهم جمعوا بين الفطرة الموهوبة، والدربة

---

(١) فصلت: آية ٣٣.

المكسوبة، فضلاً عن الروحانية المطلوبة، والحماسة المشبوبة.

ومما أعان الإخوان على الإيجابية والإنتاج، تربيتهم على الإحساس بقيمة الوقت، والحرص على الانتفاع به، وأن كل إنسان لن تزول قدماه يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟.

ولهذا كان من الوصايا العشر التي ذكرناها من قبل، وصيتان تتعلق بالوقت.. إحداهما تقول: «أتل القرآن، أو طالع، أو إستمع، أو أذكر الله، ولا تصرف جزءاً من وقتك في غير فائدة»، وهذه هي ثانية الوصايا.

والأخرى، وهي الوصية العاشرة والخاتمة تقول: «الواجبات أكثر من الأوقات، فعاون غيرك على الإنتفاع بوقته، وإن كان لك مهمة فأوجز في قضائها».

ومن أبلغ ما كتبه الشهيد البنا: حديث من أحاديث الجمعة، التي كان يكتبها لجريدة «الإخوان المسلمون» اليومية، صباح كل جمعة، بعنوان «الوقت هو الحياة»، يخطىء فيه المثل الشائع: «الوقت من ذهب» قائلاً: «إن هذا صحيح في نظر الماديين، الذين يقيسون كل شيء بمقياس المادة، ولكن الواقع أن الوقت أغلى من الذهب ومن كل جوهر نفيس. فإن الذهب إذا فات، يمكن أن يعوض، والوقت إذا فات لا يعوض. الوقت في الحقيقة هو الحياة، وهل حياة الإنسان إلا الوقت الذي يقضيه من الميلاد إلى الوفاة؟».

ومما سجله في مذكراته ـ رحمه الله ـ أن أحد شيوخه قال له ولبعض إخوانه:

«إني أتوسم أن الله سيجمع عليكم القلوب، ويضم إليكم كثيراً من الناس، فاعلموا أن الله سيسألكم عن أوقات هؤلاء، الذين سيجتمعون عليكم: أفدتموهم فيها، فيكون لهم الثواب ولكم مثلهم، أم انصرفت هباء فيؤاخذون وتؤاخذون؟!».

وقد سمعته يردد هذه الوصية، في حفل كبير أقيم في مدينة طنطا، للتوعية بالمطالب الوطنية، التي تحددت حينذاك في جلاء الإنجليز ووحدة وادي النيل.

ولقد استطاع الإخوان حين اعتقلوا في عهد الملكية، بعد حل جماعتهم في ديسمبر ١٩٤٨، وبعد الإجتماع المشهور في منطقة «فايد» العسكرية، لسفراء إنجلترا وأمريكا وفرنسا، أن يحولوا معتقلهم الأكبر في الطور إلى جامع للعبادة، ومعهد للدراسة، وناد للرياضة، ومعسكر للتدريب، وبرلمان للتشاور، حتى كنا نقول على سبيل الفكاهة: الطور هو المخيم الدائم للإخوان المسلمين لسنة ١٩٤٩. السفر والمصاريف والإقامة والتكاليف على حساب الحكومة المصرية!!

ولقد سجلت ذلك في قصيدة لي، ألقيتها في حفل إخواني أقيم بميدان السيدة زينب، بعد خروجنا من المعتقل (١٩٥٠) ومنها:

قالوا: إلى السجن. قلنا: شعبة فتحت
ليجمعونا بها في الله إخوانا
قالوا: إلى الطور. قلنا: الطور مؤتمر
فيه نقرر ما يخشاه أعدانا
فهو المصلى نربي فيه أنفسنا
وهو المصيف نقوي فيه أبدانا
معسكر صاغنا جنداً لمعركة
ومعهد زادنا بالحق عرفانا
من حرموا الجمع منا فوق أربعة
ضمنوا الألوف بغاب الطور أسدانا
راموه منفى وتضييقاً فكان لنا
بنعمة الحب والإيمان بستانا
هذا هو الطور شاؤوا أن نذوب به
وشاء ربك أن نزداد إيمانا

ولقد استفاد جلادو الثورة من هذه التجربة، فجهدوا جهدهم ألا يستفيد الإخوان من فترة بقائهم في المعتقلات أو السجون، لدعوتهم أو لأنفسهم، فكان الإعتقال سنة ١٩٥٤ في السجن الحربي، حيث الزنازين المغلقة، التي لا تفتح إلا دقائق معدودة في اليوم والليلة، لدخول دورة المياه ركضاً وبأقصى سرعة، حيث السياط تلهب الظهور، ولم يسمح بأي تجمع ولو كان للصلاة، إلا ما كان من تجمع طوابير «التكدير»، كما لم يسمح باصطحاب أي

كتاب، ولو كان هو كتاب الله الكريم.

ومع هذا، تحولت الزنازين إلى حلقات للذكر والتسبيح، والتدارس الهادىء ، كلما سنحت فرصة تهدأ فيها سياط التعذيب.

ولقد حدثني بعض الإخوة، الذين نقلوا إلى معسكر «المحاريق» في الواحات، زيادة في التنكيل والإعنات لهم: كيف حولوه في مدة وجيزة، من أرض قفراء قاحلة، إلى جنة ضاحكة، زروع وثمار وفاكهة ودواجن، عم نفعها الضباط والجنود، وكل من يعيش حولهم، ولما زار هم بعض رجال الثورة، ومعهم الجلاد الشهير حمزة البسيوني، فوجئوا بما شاهدوا، وآذاهم ذلك كل الإيذاء، وغاظهم أشد الغيظ، أن يجدوا عند هؤلاء المعذبين صدوراً تنشرح للعمل، وعزائم تتجه إلى الإنتاج، فأمروا بهدم هذا كله وتخريبه، وبناء سجن محكم، يحول بين هؤلاء وبين العمل للحياة!.

هكذا أراد حسن البنا لدعوته وحركته: أن تكون دعوة عمل وبناء وإنتاج.

لم يرد لها أن تكون مجرد حركة أكاديمية أو فلسفية، تعيش في أبراج عاجية، تتخيل جمهورية مثالية كجمهورية أفلاطون، أو مدينة فاضلة كمدينة الفارابي، وإن كان للفكر والعلم فيها مكان أي مكان.

ولم يرد كذلك لجماعته، أن تكون جماعة جدلية، تستهلك

أفرادها المناقشات البيزنطية، التي تسود بعض الجماعات الدينية، والتي تغلب على الأمم في عصور الضعف والإنحلال، وكثيراً ما كان يحذر من الجدل للعقيم، والمراء الموغر للصدور دون جدوى، ويكرر الحديث الشريف: «ما ضل قوم بعد هدي كانوا عليه إلا أوتوا الجدل».

* * *

الاعتدال والتوازن

ومن خصائص التربية الإسلامية، كما دعا إليها حسن البنا وعلمها لرجاله: الإعتدال، وإن شئت فسمه: التوازن أو الوسطية.

وإذا كان المسلمون وسطاً بين الأمم والملل، وكان أهل السنة وسطاً بين الفرق، فالإخوان وسط بين الجماعات الإسلامية.

فهم يوازنون بين العقل والعاطفة، وبين المادة والروح، وبين النظر والعمل، وبين الفرد والمجتمع، وبين الشورى والطاعة، وبين الحقوق والواجبات، وبين القديم والجديد.

وقد انتفعت الحركة بالتراث الإسلامي كله، فأخذت من علماء الشريعة، العناية بالنصوص والأحكام، ومن علماء الكلام، الإهتمام بالأدلة العقلية ورد الشبهات، ومن علماء التصوف، العناية بتربية القلوب وتزكية النفوس، مع الحرص البالغ على التحرر مما علق بهذا التراث من شوائب ومحدثات، والرجوع إلى النبع الصافي، من كتاب الله وسنة رسوله.

لم يقف حسن البنا من التراث الفقهي، بمذاهبه ومدارسه

موقف الرفض المطلق، كما صنع بعض الناس، ولا موقف القبول المطلق، كما فعل آخرون، ولم يوجب التقليد للمذاهب، ولم يحرمه كذلك على كل الناس ، لكنه أجازه لبعض الناس بقيود وشروط، هي غاية في الاعتدال . فقال في «الأصل السابع» من الأصول العشرين:

«لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية، أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به ـ مع هذا الإتباع ـ أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي، إن كان من أهل العلم، حتى يبلغ درجة النظر». (أي القدرة على الترجيح والإجتهاد ولو جزئياً).

وليس معنى هذا أن كل ما قاله إمام من أئمة الدين حق وصواب، فإنما هو مجتهد في الوصول إلى الحق، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، وليس علينا ـ بل ليس لنا ـ إذا تبين خطأه، أن نتبعه. ولهذا قال في «الأصل السادس» بصريح العبارة:

«وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك، إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ موافقاً للكتاب والسنة قبلناه، وإلا ، فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع. ولكنا لا نعرض للأشخاص ـ فيما اختلف فيه ـ بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم، وقد أفضوا إلى ما قدموا».

وهذا هو الاعتدال، كما أنه هو الإنصاف الذي لا يستطيع أحد أن يماري فيه، وهو موقف شيخ الإسلام ابن تيمية، في كتابه المركز الجليل «رفع الملام عن الأئمة الأعلام».

ولم يقف رائد الحركة الإسلامية عند هذا الحد، بل أعلن أن كل الآراء والعلوم، التي تلونت بلون عصرها وبيئتها، لا تلزمنا نحن دعاة الإسلام في القرن الرابع عشر الهجري، ولنا الحرية أن نجتهد لأنفسنا، كما اجتهدوا، وإن كنا لا نهمل دراستها والإنتفاع بها، فهي ثروة عظيمة بلا شك.

يقول في «رسالة المؤتمر الخامس»:

يعتقد الإخوان المسلمون، أن أساس التعاليم الإسلامية، ومعينها، هو كتاب الله وسنة رسوله، اللذان إن تمسكت بهماالأمة، فلن تضل أبداً، وإن كثيراً من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام، وتلونت بلونه، تحمل لون العصور التي أوجدتها، والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقي النظم الإسلامية التي تحمل عليها الأمة، من هذا المعين الصافي: معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية، حتى لا نقيد أنفسنا بغير ما قيدنا الله به، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جميعاً»

هذه هي روح التجديد الحق، تجديد الاعتدال، لا تجديد الشطح والتطرف.

هذا موقفه من قضية الفقه وقضية الإجتهاد والتقليد، والمذهبية واللامذهبية، وسطاً معتدلاً، لا غلو ولا تقصير.

وكذلك كان موقفه في قضية« العقيدة»، وما جرى حولها من خلاف في بعض المسائل، وفهم بعض النصوص ، واختلاف الفرق والمذاهب في ذلك.

لقد كان يعتنق عقيدة أهل السنة والجماعة، ويتبنى طريق السلف في فهم الآيات والأحاديث المتعلقة بصفات الله تعالى. وكان حريصاً كل الحرص على تحقيق التوحيد، ومحاربة الشرك بكل ألوانه وأنواعه: أكبره وأصغره. وجليه وخفيه، منكراً كل مظاهر الوثنية، وكل المبتدعات الشركية، التي دخلت على حياة كثير من المسلمين، فأفسدت عليهم عقائدهم وعباداتهم وأفكارهم وعواطفهم وسلوكهم ، مثل الزيارات الشركية للأضرحة ، والاستغاثات الشركية بالأولياء، وإتيان الكهنة والعرافين وتصديقهم، إلى غير ذلك من صور الأباطيل والانحرافات.

ولكنه يمهد لهذه الحملة على الشركيات والبدع، بما يهيىء الأنفس والعقول لتقبلها، ويصوغ إنكاره في عبارات لبقة حكيمة، تجمع بين مرارة الحق، وحلاوة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

اصغ إليه يقول في الأصول العشرين:

« محبة الصالحين واحترامهم، والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم، قربة إلى الله تبارك وتعالى. والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾[1].

والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، في حياتهم، أو بعد مماتهم، فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم. »

« وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة، بالكيفية المأثورة، ولكن الإستعانة بالمقبورين أياً كانوا، ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم، عن قرب أو بعد، والنذر لهم، وتشييد القبور، وسترها، وإضاءتها، والتمسح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق بذلك من المبتدعات، كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة»

وهكذا نراه يهتم ببيان الحق قبل فضح الباطل، ويقدم التعريف بالمعروف قبل إنكار المنكر. وبذلك يلين النفوس التي شبت على الباطل وشابت عليه، ويدخل إليها دخول الداعية الموفق، والمربي الحكيم، دون استثارة المعاندين، أو تأليب المخالفين.

---

(١) يونس: آية ٦٣.

وكذلك كان الشأن في موضوع «الصفات الإلهية»، وما ثار فيها من جدل بين العلماء من مؤولين وغير مؤولين، فهو يغض الطرف عن هذا الخلاف، راجعاً إلى معين السهولة الأولى، بعيداً عن تكلف التأويل، وإثم التعطيل يقول في الأصل العاشر:

«معرفة الله تبارك وتعالى، وتوحيده، وتنزيهه، أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابه.. نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء. ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿والراسخون في العلم يقولون: آمنا به، كل من عند ربنا﴾[1].

وبمثل هذه الروح المنصفة المعتدلة وقف من التصوف: فلم يقبله كله بعجره وبجره، وسنيه وبدعيه، ولم يرفضه كله بما فيه من صواب وخطأ، وحسن وسوء. بل كان مبدؤه هنا: خذ ما صفا ودع ما كدر. فليس كل ما في التصوف باطلاً، وليس كله حقاً، وليس كل المتصوفة مبتدعة، وليس كلهم على سنة، فلا بد من الإنتقاء والإختيار، والإستفادة من تراث القوم، وفيه من الحرارة والتأثير ما ليس في غيرهم، ولكلامهم صولة ليس لكلام من سواهم، وقد

---

(١) آل عمران: آية ٧.

سجل رأيه في التصوف بصراحة في كتابه: « مذكرات الدعوة والداعية».

ورغم أنه بدأ في أول الأمر على صلة بإحدى الطرق، فهو لم يسلم زمامه إليها، بل أخذ منها وترك، وقال عن نفسه وعن صديقه السكري: كنا مريدين أحراراً في تفكيرنا، وإن كنا مخلصين كل الإخلاص- في تقديرنا- للعبادة والذكر وأدب السلوك.

مع أن الطريقة نفسها كانت أبعد من غيرها عن البدع، وكان يعجبه من شيخها شدته في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، حتى للملوك والكبراء، وإتباعه للسنن، ومحاربته للبدع، ولم يكن يُصغي كثيراً لما يسمعه من كرامات الشيخ وخوارقه الحسية، فعمله في هداية الخلق، ونشر الحق، أعظم من الكرامات في نظره.

ولم تلن قناة حسن البنا للبدع والمحدثات التي راجت بين كثيرين من المتصوفة، عن الزيارات البدعية للأضرحة، والتبرك بالقبور، ودعاء الأموات، وتعليق التمائم، وغيرها، فأعلن الحرب على هذه الأشياء في الأصول العشرين، واعتبرها كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لها سداً للذريعة.

ومع هذا ، قال في إنكار البدع ومقاومتها:

« وكل بدعة في دين الله لا أصل لها- إستحسنها الناس بأهوائهم- سواء بالزيادة فيه أو النقص منه- ضلالة تجب محاربتها

والقضاء عليها، بأفضل الوسائل ، التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها».

وهذا هو الفقه حقاً، فإن السكوت على المنكر واجب، إذا أدت مقاومته إلى منكر أكبر منه. ولهذا أصل في القرآن والسنة كما هو معلوم في موضعه.

ولهذا كان يصلي التراويح في رمضان ثماني ركعات، حسبما صح من الحديث عن عائشة. . ولكن لم ينكر على من صلى عشرين؛ فلكل من الفريقين وجهة ودليل، وسيظل الخلاف في الفروع قائمًا لأسباب ذكرها هو في أكثر من رسالة من رسائله.

وقد حكوا عنه أنه زار بلداً اختلف أهله بين صلاة الثمانية وصلاة العشرين، وقام بينهما النزاع على أشده، حتى كادوا يقتتلون، واجتمع الفريقان ليسألوه. لم يجبهم، بل سألهم هو عن صلاة التراويح: أسنة هي أم فريضة؟ فقالوا جميعاً: بل سنة. فقال: والأخوة بين المسلمين واتحاد كلمتهم: سنة أم فريضة؟ قالوا جميعاً: بل فريضة. فقال في قوة ووضوح: كيف تهدمون فريضة من أجل سنة؟ خير لكم أن تدعوا صلاة التراويح نهائياً في المسجد، وتحتفظوا بأخوتكم سليمة، بدل أن تصلوا ويضرب بعضكم وجوه بعض.

كانت مزية حسن البنا، الجمع بين عقل السلفي المتبع، وقلب الصفي المتذوق. وكذلك أراد لأصحابه.

فهو في العقيدة سلفي خالص، يؤمن بالتوحيد، ويحارب الشرك أكبره وأصغره، وجليه وخفيه، ويتبنى منهج السلف في آيات الصفات وأحاديثها، كما بين ذلك في رسالته عن« العقائد» وفي أصوله العشرين.

وهو في العبادة كذلك متبع لا مبتدع ، فكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ولكنه في تزكية الأنفس، وتهذيب الأخلاق، وعلاج أمراض القلوب، ومقاومة الهوى، وسد مداخل الشيطان إلى قلب الإنسان، متصوف سني، ذواقة نقادة، يأخذ لنفسه ولأتباعه من كتب القوم ومناهجهم ما يرقي الروح، ويطهر القلب، ويوثق الصلة بالله، والحب بين الإخوان.

وموقفه هنا يشبه إلى حد كبير موقف شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه العلامة ابن القيم، فقد استفادا من التصوف ـ علمًا وعملاً وتعليمًا ـ وكتبا في ذلك رسائل وكتباً عديدة، منها لابن تيمية مجلدان في فتاويه: أحدهما تحت عنوان «التصوف» ، والثاني تحت عنوان: « السلوك».

أما ابن القيم، فله مؤلفات عدة منها: الداء والدواء، طريق الهجرتين، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.

وأعظمها كتابه الجليل (مدارج السالكين، شرح منازل السائرين إلى مقامات﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾).

و« المنازل» ، رسالة موجزة مكثفة لشيخ الإسلام إسماعيل الهروي الحنبلي، ولكنه طالما خالفه فيما ذهب إليه فيها، قائلاً: «شيخ الإسلام حبيب إلينا، ولكن الحق أحب إلينا منه».

وكان إبن تيمية وتلميذه من كبار الربانيين، أرباب القلوب الحية، والنفوس الزاكية، والأرواح الموصولة بالملأ الأعلى، حتى حكى ابن القيم عن شيخه أنه قال: إنه لتمر علي أوقات أقول فيها: لو كان أهل الجنة على مثل ما أنا فيه لكانوا في حال طيبة!

ولما حبسوه في القلعة، لم يوهن ذلك من عزمه، ولم يضعف من أنسه بمولاه. وقال في ذلك: إنما المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه.

وقال: ماذا يصنع بي أعدائي؟ إن سجنوني فسجني خلوة، وإن نفوني فنفيي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة!

ويبدو لي من تتبع حياة حسن البنا، ومراحل تفكيره ودعوته: أنه بدأ أقرب إلى الصوفية، وانتهى أقرب الى السلفية، ولكنه لم يقم يوماً بينهما حرباً، بل طعم صرامة السلفية بروحانية التصوف، وضبط مواجيد التصوف بالتزام السلفية، وكان ذلك هو الطابع الغالب على أتباعه، إلا ما ندر.

الإعتدال في النظرة إلى المجتمع وتحديد هويته:

ومن دلائل الاعتدال والتوازن في تربية الإخوان، كما فهمها

حسن البنا ونفذها: نظرته إلى المجتمع، وعلاقة الإخوان به، فهي نظرة وسطية معتدلة، تنظر إلى المجتمع من أفق رحب، ومن زوايا متعددة، وبمنظار سليم لم يشبه الغبش والقتام.

فليس هو مجتمعاً خالص الإسلام، كامل الإيمان، كما يتوهم السطحيون من الناس، الذين يشيعون أن أمة محمد بخير، وأنه لا ينقصنا إلا العلم و «التكنولوجيا»، وبذلك تنحل كل العقد، وتنفض كل المشكلات.

فلا شك أن المجتمع في شتى بلاد الإسلام يعاني أمراضاً خطيرة، عقدية وفكرية وخلقية وإجتماعية، وأن الفساد قد تغلغل في شتى نواحيه: فساد في العقول، اضطربت به العقائد والمفاهيم، وفساد في الضمائر، اضطربت به الأخلاق والأعمال، وفساد في التشريع، اضطربت به النظم والقوانين ، وفساد في الأسرة، اضطربت به العلاقات بين الأزواج والوالدين والأولاد، وفساد في الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية كلها، جعل بلاد المسلمين في مؤخرة العالم، بعد أن كانت في الطليعة من قافلة البشر، ومأخذ الزمام منها.

ولا شك أن هذا كله نتيجة ضمنية للإنحراف عن الإسلام الصحيح، فهمًا وإيماناً وتطبيقاً. ولولا هذا ما كان المجتمع في حاجة إلى دعوة جديدة، تصحح فهمه للإسلام، وتجدد إيمانه به، وتدفعه- بالتوجيه الراشد، والتربية السليمة- على حسن تطبيقه.

ورغم هذا الإنحراف والفساد الشائع في المجتمع، لم يذهب حسن البنا يوماً إلى أنه مجتمع جاهلي كافر.

إنه قد يصف المجتمع بالإنحراف أو الفسوق، أو العصيان أو الإبتداع، . . أما الكفر والردة فلا.

فلا زالت شعائر الإسلام تقام في هذا المجتمع، ولا زالت بعض أحكام الإسلام ترعى وتنفذ، ولا زال جمهور الناس مؤمنين بربهم ونبيهم وقرآنهم، ولا زالت العاطفة الدينية تحتل مكانها في الصدور، ولا زالت كلمة الإسلام هي المحرك الأول للشعوب.

كان حسن البنا يربي أتباعه على الإحتراز من خطيئة «التكفير» للمسلمين، والوقوع فيما وقع فيه الخوارج من قبل، حيث كفروا من عداهم من المسلمين، واستحلوا دماءهم وأموالهم، حتى كان من سماتهم البارزة: أنهم «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان».

وكان ينكر على الجماعات الدينية التي تتراشق فيما بينها بسهام التكفير، والإتهام بالشرك والردة.

والأصل الثاني من أصوله العشرين يقول في صراحة:

«لا نكفر مسلمًا أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض- برأي أو معصية، إلا أن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا

تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلا غير الكفر».

إن تكفير الأفراد والمجتمعات ـ الذي تبناه بعض الدعاة إلى الإسلام فيما بعد ـ خطأ ديني، وخطأ علمي، وخطأ حركي، أرجو أن أبينه في كتاب مستقل إن شاء الله.

وفي تحديد علاقة الإخوان بالمجتمع، قامت تربية الإخوان على هذه النظرة المتزنة.

فلم تقم على الذوبان في المجتمع أو مسايرته في خيره وشره، وحلاله وحرامه، باسم «التطور»، أو «التحديث»، ونحو ذلك من العناوين التي يتكىء عليها دعاة «التغريب»، وأدعياء «التجديد»، في ديار المسلمين.

كما لم تقم أيضاً على رفض المجتمع، والإستعلاء عليه، ومعاملته معاملة العدو للعدو، ومخاطبته من بعيد، ومن عل، بأنف شامخ، وخد مصعر، وشعور بالعزلة والإستكبار.

إنما قامت التربية على أساس الإهتمام بالمجتمع، والتفاعل مع أحداثه، والإحساس بآلامه وآماله، بحيث يفرح الأخ المسلم لأفراحه، ويأسى لأساه، ويعمل لإسعاده وإنقاذه وإصلاحه، فهو منه كالعضو من الجسد، أو كاللبنة من البنيان.

وهكذا، صور لنا النبي ﷺ مجتمع المؤمنين:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

«مثل المسلمين في توادهم ... مهم كمثل الجسد الواحد».

«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

والأخ المسلم كذلك محب لوطنه، عامل على تخليصه من كل غاصب، وتحريره من كل قيد يعوقه عن النهوض بواجبه عزيزاً مستقلاً.

يقول الشهيد البنا في رسالته: «دعوتنا في طور جديد»:

«إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة، في الأرض التي نبتنا فيها، ونشأنا عليها. ومصر بلد مؤمن، تلقى الإسلام تلقياً كريماً، وذاد عنه، ورد عنه العدوان في كثير من أدوار التاريخ، وأخلص في اعتناقه، وطوى عليه أعطف المشاعر، وأنبل العواطف. وهو لا يصلح إلا بالإسلام، ولا يداوى إلا بعقاقيره، ولا يطب إلا بعلاجه. وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية، والقيام عليها، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع؟ وكيف يقال إن الإيمان بالمصرية، لا يتفق مع ما يجب أن يدعو إليه رجل ينادي بالإسلام ويهتف بالإسلام!

إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب، عاملون له، مجاهدون في سبيل خيره، وسنظل كذلك ما حيينا، معتقدين أن هذه

هي الحلقة الأولى في سلسلة النهضة المنشودة، وأنها جزء من الوطن العربي العام، وأننا حين نعمل لمصر، نعمل للعروبة والشرق والإسلام.

وليس يضيرنا في هذا كله، أن نعنى بتاريخ مصر القديم، وبما ترك قدماء المصريين من آثار الحضارة والعمران، وبما سبقوا إليه الناس من المعارف والعلوم والفنون.

فنحن نرحب بمصر القديمة، كتاريخ فيه مجد وفيه عزة، وفيه علم ومعرفة . ونحارب هذه النظرية بكل قوانا، كمنهاج عملي يراد صبغ مصر به، ودعوتها إليه بعد أن هداها الله بتعاليم الإسلام، وشرح له صدرها، وأنار به بصيرتها، وزادها به شرفاً ومجداً فوق مجدها، وخلصها بذلك مما لاحق هذا التاريخ من أوضار الوثنية، وأدران الشرك، وعادات الجاهلية».

وهذه الكلمات المضيئة المشرقة، تبين لنا وجهاً آخر من وجوه الإعتدال والتوازن، في دعوة حسن البنا وفي تربيته، جديراً بأن نخصه بحديث، وهو موقفه من الوطنية والقومية وما شاكلها.

موقف الدعوة من الوطنية والقومية وغيرها:

ومن مظاهر الإعتدال الذي ربّى عليه حسن البنا رجال دعوته: موقفه من الدعوات والأفكار الأخرى، التي كانت مطروحة في المنطقة حين ظهرت دعوته.

وذلك مثل موقفه من الوطنية، أو القومية، أو العروبة، أو الشرقية، أو العالمية.

فهو لا يصدم أصحاب هذه الدعوات برفضها رفضاً مطلقاً، كما لا يقبلها قبولاً مطلقاً، ولكنه ـ عادة ـ يقسمها ويصنفها إلى ما هو مقبول لموافقته للفكرة الإسلامية، وما هو مرفوض لمنافاته لها.

* وطنية الحنين:

في رسالة: «دعوتنا»، يقول مناقشاً دعاة الوطنية: «إن كان دعاة الوطنية، يريدون بها حب هذه الأرض، وألفتها، والحنين إليها، والإنعطاف نحوها، فذلك أمر مركوز في فطر النفوس من جهة، مأمور به في الإسلام من جهة أخرى. وإن بلالاً، الذي ضحى بكل شيء في سبيل عقيدته ودينه، هو بلال، الذي كان يهتف في دار الهجرة بالحنين إلى مكة، في أبيات تسيل رقة وتقطر حلاوة.

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
بواد وحولي أذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة
وهل يبدون لي شامة وطفيل

ولقد سمع رسول الله ﷺ، وصف مكة من «أصيل»، فجرى دمعه حنيناً إليها، وقال: «يا أصيل، دع القلوب تقر».

* وطنية الحرية والعزة:

وإن كانوا يريدون، أن من الواجب العمل بكل جهد في تحرير البلد من الغاصبين، وتوفير إستقلاله له، وغرس مبادىء العزة والحرية في نفوس أبنائه، فنحن معهم في ذلك أيضاً، وقد شدد الإسلام في ذلك أبلغ التشديد. فقال تبارك وتعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[1] ويقول: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾[2].

* وطنية المجتمع:

وإن كانوا يريدون بالوطنية، تقوية الرابطة بين أفراد القطر الواحد، وإرشادهم إلى طريق استخدام هذه التقوية في مصالحهم. فذلك نوافقهم فيه أيضاً، ويراه الإسلام فريضة لازمة. فيقول نبيه - ﷺ -: «وكونوا عباد الله إخواناً». ويقول القرآن الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً..﴾[3].

* وطنية الفتح:

وإن كانوا يريدون بالوطنية، فتح البلاد، وسيادة الأرض، فقد فرض ذلك الإسلام، ووجه الفاتحين إلى أفضل إستعمار،

---

(١) المنافقون: آية ٨.

(٢) البقرة: آية ١٩٣.

(٣) آل عمران: آية ١١٨.

وأبرك فتح. فذلك قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾[1].

* وطنية الحزبية:

وإن كانوا يريدون بالوطنية، تقسيم الأمة إلى طوائف تتناحر وتتضاغن، وتتراشق بالسباب، وتترامى بالتهم، ويكيد بعضها لبعض، وتتشيع لمناهج وضعية أملتها الأهواء، وشكلتها الغايات والأغراض، وفسرتها الأفهام وفق المصالح الشخصية، والعدو يستغل كل ذلك لمصلحته، ويزيد وقود هذه النار إشتعالاً، يفرقهم في الحق، ويجمعهم على الباطل، ويحرم عليهم إتصال بعضهم ببعض، وتعاون بعضهم مع بعض، ويحل لهم هذه الصلة به، والإلتفاف حوله، فلا يقصدون إلا داره، ولا يجتمعون إلا زواره، فتلك وطنية زائفة لا خير فيها لدعاتها ولا للناس.

فها أنت ذا قد رأيت أننا مع دعاة الوطنية، بل مع غلاتهم في كل معانيها الصالحة، التي تعود بالخير على البلاد والعباد.

وقد رأيت مع هذا أن تلك الدعوى الوطنية الطويلة العريضة، لم تخرج عن أنها جزء من تعاليم الإسلام.

* حدود وطنيتنا:

أما وجه الخلاف بيننا وبينهم، فهو أننا نعتبر حدود الوطنية

---

(١) النساء: آية ١٤١.

بالعقيدة، وهم يعتبرونها بـ«تخوم» الأرضية والحدود الجغرافية. فكل بقعة فيها مسلم يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وطن عندنا، له حرمته وقداسته وحبه، والإخلاص له، والجهاد في سبيل خيره. وكل المسلمين في هذه الأقطار الجغرافية أهلنا وإخواننا، نهتم لهم، ونشعر بشعورهم، ونحس بإحساسهم، ودعاة الوطنية فقط ليسوا كذلك، فلا يعنيهم إلا أمر تلك البقعة المحدودة الضيقة من رقعة الأرض، ويظهر ذلك الفارق العملي، فيما إذا أرادت أمة من الأمم أن تقوي نفسها على حساب غيرها، فنحن لا نرضى ذلك على حساب أي قطر إسلامي، وإنما نطلب القوة لنا جميعاً، ودعاة الوطنية المجردة لا يرون بذلك بأساً. ومن هنا تتفكك الروابط وتضعف القوى، ويضرب العدو بعضهم ببعض.

* غاية وطننا:

هذه هي واحدة. والثانية، أن الوطنيين فقط جل ما يقصدون إليه تخليص بلادهم، فإذا ما عملوا لتقويتها بعد ذلك، ففي النواحي المادية، كما تفعل أوروبا الآن. أما نحن فنعتقد أن المسلم في عنقه أمانة، عليه أن يبذل نفسه ودمه وماله في سبيل أدائها.. تلك هي هداية البشر بنور الإسلام، ورفع علمه خفاقاً على كل ربوع الأرض، لا يبغي بذلك مالاً، ولا جاهاً، ولا سلطاناً على أحد، ولا استعباداً لشعب، وإنما يبغي وجه الله وحده، وإسعاد العالم بدينه وإعلاء كلمته. وذلك ما حدا بالسلف الصالحين رضوان الله عليهم، إلى هذه الفتوح القدسية، التي أدهشت الدنيا، وأربت

على كل ما عرف التاريخ من سرعة وعدل، ونبل وفضل».

أصناف الناس في موقفهم من الدعوة:

ويبين حسن البنا أصناف الناس في موقفهم من الدعوة، فيجعلهم أربعة:

١ـ إما شخص مؤمن . . آمن بالدعوة، وأعجب بمبادئها، ورأى فيها خيراً اطمأنت إليه نفسه. . فهذا ندعوه أن يبادر بالإنضمام إلينا، والعمل معنا، حتى يكثر عدد المجاهدين ، ويعلو بصوته صوت الداعين. . ولا معنى لإيمان لا يتبعه عمل، ولا فائدة في عقيدة لا تدفع صاحبها إلى تحقيقها، والتضحية في سبيلها.

٢ـ وإما شخص متردد، لم يستبن له وجه، ولم يتعرف في قولنا معنى الإخلاص والفائدة، فهو متوقف متردد. لهذا يوصيه حسن البنا: «بأن يتصل بنا عن كثب، ويقرأ عنا من بعيد أو من قريب، ويطالع كتاباتنا، ويزور أنديتنا، ويتعرف إلى إخواننا، فسيطمئن بعد ذلك لنا إن شاء الله».

وإما شخص نفعي، لا يريد أن يبذل معونته، إلا إذا عرف ما يعود عليه من فائدة دنيوية، وما يجر هذا البذل له من مغنم مادي. فهذا، إن كشف الله الغشاوة عن قلبه؛ وأزاح كابوس الطمع عن فؤاده، فسيعلم أن ما عند الله خير وأبقى، وسينضم إلى كتيبة الله ليجود بما معه من عرض الدنيا، لينال ثواب الله في العقبى، وإن

كانت الأخرى، فالله غني عمن لا يرى لله الحق الأول في نفسه وماله، ودنياه وآخرته، وموته وحياته.

٤- وإما شخص متحامل، ساء فينا ظنه، وأحاطت بنا شكوكه وريبه، فهو لا يرانا إلا بالمنظار الأسود القاتم، ولا يتحدث عنا إلا بلسان المتحرج المتشكك.

فهذا، ندعو الله لنا وله الهداية والرشد. وسنظل نحبه ونرجو فيئه إلينا، واقتناعه بدعوتنا، وإنما شعارنا معه ما أرشدنا إليه المصطفى -ﷺ-: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

بهذه الروح الطيبة السمحة، وبهذا القلب الكبير، وبهذا الأسلوب الكريم، كان حسن البنا ينظر إلى الناس في المجتمع من حوله، ويحدد موقفهم من دعوته، وموقفه - بالتالي - منهم، وهو موقف أبرز ما يعبر عنه كلمة: «الإعتدال».

* * *

الإخـوَة والجـمَاعَة

ومن المعاني الأساسية التي رُبي عليها الإخوان المسلمون: الأخوة والمحبة في الله، ولا غرو فاسمهم نفسه يحمل هذا المعنى «الإخوان». وقد جعل الإمام البنا «الأخوة»، أحد أركان البيعة العشرة.. وفسرها بقوله: أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأعلاها، الأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأقل القوة قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب. أقل الحب سلامة الصدر، وأعلاه مرتبة الإيثار: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1]. والأخ الصادق يرى إخوانه أولى به من نفسه ، لأنه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[2] وهكذا يجب أن يكون..

وسمعته مرة يقول: دعوتنا تقوم على أركان ثلاثة:

---

(١) التغابن: آية ١٦.
(٢) التوبة: آية ٧١.

الفهم الدقيق، والإيمان العميق، والحب الوثيق.

وكان رحمه الله، في حديثه الأسبوعي بالمركز العام للجماعة، المسمى «حديث الثلاثاء»، يبدأه بمقدمة ترغيبية، لتقوية أواصر الحب بين أعضاء الحركة، مؤيدة بالنصوص، ووقائع السلف الصالح، يسميها «عاطفة الثلاثاء».

ولقد عرض القاصي والداني مقدار الترابط المتين الذي يربط الإخوان بعضهم ببعض، فهم صورة ماثلة لما أراده الحديث النبوي: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً». فهم في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، أشبه بأبناء الأسرة الواحدة، بل بأعضاء الجسد الواحد.

ولقد لاحظ أحد الصحافيين مدى الترابط الإخواني، فقال في ذلك كلمة مشهورة: هؤلاء هم الجماعة، الذين إذا عطس أحدهم في الإسكندرية، قال له من في أسوان: يرحمك الله!

لقد أزالت التربية الإخوانية كل الحواجز، وأسقطت كل الفوارق التي تفصل بين الناس، قومية، أو وطنية، أو لغوية، أو لونية، أو طبقية، ولم يبق إلا أخوة الإسلام، ونسب الإسلام.

أبي الإسلام لا أب لي سواه
إذا افتخروا بقيس أو تميم

وفي دور الإخوان، ترى المهندس والعامل، والطبيب

والتمورجي، والمدرس والفلاح، وابن الذوات وابن البلد، والشيخ والشاب... وهكذا من كل الفئات، وكل الأعمار، ولا تجد بينهم إلا الأخوة التي كانت قبل أصحاب رسول الله ﷺ، على تفاوت أجناسهم وألوانهم وأنسابهم وطبقاتهم، وصدق الله العظيم: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1].

ولقد كان المركز العام للإخوان في القاهرة ملتقى عالمياً، وبوتقة تصهر فيها كل الجنسيات، ولا يبقى إلا رباط العروة الوثقى، وكلمة التقوى، كلمة الإسلام.

ففيه كنت ترى العربي والعجمي، والإفريقي والآسيوي، والشامي والمغربي، والأبيض والأسود، والأصفر والأحمر، جاؤوا من مختلف الأوطان، وحملوا شتى الجنسيات، وتكلموا بمختلف اللغات، وربما كان بين دولهم بعضها وبعض خصومات ونزاعات، ولكنهم هنا «إخوة أشقاء»، في «دار العائلة» ورمز الوحدة الإسلامية: دار الإخوان.

وكثير منهم من اندمج في إخوانه المصريين، حتى غدا واحداً منهم، وإن كان يحمل في الأصل جنسية أفغانية أو عراقية أو هندية، أو غيرها.

أذكر من هؤلاء الإخوة الأفاضل، عبد الله العقيل، وهارون

---

(١) الحجرات: آية ١٠.

المجددي، ومحمد مصطفى الأعظمي، وقد دخل الأخيران السجن الحربي سنة ١٩٥٤ مع إخوانهم المصريين، وذاقوا من العذاب بعض ما ذاقوه، ولم تغن عنهم جنسياتهم أمام الطغيان الناصري الرهيب.

وقد حدثني الداعية الإسلامي الكبير، الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- أنه زار أوروبا للعلاج مما أصابه في سنواته الأخيرة من الشلل، فما يكاد ينزل من الطائرة في بلد، إلا وجد شباباً من مختلف الجنسيات ينتظرونه، وقد هيأوا له كل ما يريد، فوق ما يريد. يقول وهو يبكي: «والله ما أعرف منهم أحداً، ولا لقيتهم ولا لقوني من قبل. ولكنها أخوة العقيدة، ورابطة الدعوة لاحرمنا الله من بركاتها- جعلتني أشعر كأنهم أصدقائي منذ سنين طويلة».

ولا ريب أن نعمة الأخوة في الله، والمحبة في ذاته، والإرتباط على دينه، من أعظم ما مَنَّ الله به على عباده من الإيمان. وهي ثمرة من ثمراته. قال تعالى يخاطب المؤمنين في المدينة: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾[1].

وخاطب رسوله ممتناً عليه بأخوة المؤمنين من حوله: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾[2].

---

(١) آل عمران: آية ١٠٣.

(٢) الأنفال: ٦٢- ٦٣.

وقد عرفت الحياة، وعرف الناس أفراداً وجماعات، كانت بينهم صحبه وصلة، ومودة وألفة، ولكنها كانت لدنيا، فلم يكتب لها الدوام، إنما التقوا على شهوة حسية، أو متعة مادية، فلما قضوا الشهوة، أو فرغوا من المنفعة، أو يئسوا منها، أصبح جمعهم شتاتاً، وربما أصبحت مودتهم خصومة وعداوة، بخلاف الحب في الله ولله، فإنه باق ما بقي وجه الله سبحانه، ولهذا قيل: ما كان لله دام واتصل. وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

وأوثق ما كانت هذه الأخوة، وأشد ما كانت قوة وفتوة، في أيام المحن وساعات الشدائد والفتن. التي تمتحن فيها العلاقات، ويعرف فيها المحب المخلص من المداهن الكاذب، كما قال الشاعر:

جزى الله الشدائد كل خير
عرفت بها عدوي من صديقي

وعن الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ

ولا خير في ود امرىء متلون
إذا الريح مالت مال حيث تميل
جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله
وعند زوال المال عنك بخيل
فما أكثر الإخوان حين تعذهم
ولكنهم في النائبات قليل

ولقد أبرزت محن الإخوان المتلاحقة من ذلك العجب العجاب. فكم من رجال أكلت السياط(الكرابيج) من لحومهم حتى شبعت، وشربت من دمائهم حتى ارتوت، وهم صامتون لا يريدون أن يدلوا على إخوان لهم. وربما أدى طول صمتهم إلى أن فاضت أرواحهم في « زنازين» العذاب، راضية قلوبهم، حتى لا يؤذوا إخوانهم بسبب كلامهم.

وكم من شباب حملوا أنفسهم فوق ما يطيقون من العذاب ليبرئوا ساحة غيرهم، ممن يعلمون أنه أكثر عيالاً، أو أقل احتمالاً.

وكم من شباب كانوا خارج الإعتقال معافين. لا يعرف عنهم احد شيئاً، عز عليهم أن يتخلوا عن أسر إخوانهم بعد اعتقالهم، فنظموا شبكة منهم لجمع تبرعات واشتراكات، لإرسال معونات دورية إلى تلك البيوت التي فقدت عائلها، فافتقرت بعد غنى، وذلت بعد عز، وبهذا عرضوا أنفسهم للملاحقة، فالإعتقال، فالتعذيب، فالمحاكمة، فالسجن المؤبد والمؤقت مع الأشغال.

ولم يمنع القبض على هؤلاء أن يظهر غيرهم من بعدهم، فلم يكن سائغاً بحال في منطق الإخوان، أن يتخلى الأخ عن أولاد أخيه في محنته، وليكن ما يكون..

ولقد رأت زنازين السجن من معاني التعاون والإيثار، ما تضيق به الصفحات. فقد كانت الأطعمة والملابس- بعد فترة

البحبحة ـ تأتي لبعض الموسرين، فتوزع على من معه ومن حوله، وقد يناله منها شيء كأحدهم ، وقد لا ينال.

ولا يعرف قيمة هذه الروح، ونعمة هذه الأخوة، إلا من عرف كيف يعيش غير الإخوان في سجونهم.

أذكر في سنة ١٩٤٩ ، حين كنا في معتقل هايكستب. أن جماعة من الشيوعيين كانوا بجوارنا، فكانوا يتشاجرون على أدنى شيء: يعيش كل منهم لنفسه فقط. ومن جاءه شيء فهو له، وقد قسموا الحجرة التي ينامون فيها بالسنتيمتر ، كل واحد عليه تنظيف نصيبه، لا يزيد ولا ينقص، ومع هذا لا تراهم إلا متنازعين متخاصمين.

* * *

خاتمــة

لا تحسبن أخي القارىء، أنني أزعم أن الإخوان المسلمين ملائكة مطهرون، أو أنبياء معصومون. فالإخوان كغيرهم من الناس، بشر عاديون، يخطئون ويصيبون، ويعثرون وينهضون، وهم كسائر أبناء هذه الأمة المصطفاة، التي أورثها الله الكتاب: ﴿فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾(1).

ولا تعجب بعد هذا أن تجد بين الإخوان من لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه! وساعد على هذا ازدياد عدد المقبلين على الدعوة في بعض الفترات، وخاصة في اوائل الخمسينات، ازدياداً فاق الطاقات التربوية، التي تستطيع أن تستوعبه وتوجهه وتصهره في البوتقة الإسلامية. ولم يكن في وسع الجماعة رد من يقبل عليها، وإن كانت ترى في سلوكه ما لا يليق بالمسلم، لأنها كانت تعتبر دورها «مستشفيات» للعلاج، أو «ورشاً» للتصليح، يدخلها المكسر والمعوج، ليخرج صالحاً مستقيمًا.

---

(1) فاطر: آية ٣٢

ولا ننسى أن الحركات في فترات إزدهارها وإقبالها، يدخلها كثير من الطامعين ومرضى القلوب، الذين لا يريدون إلا الدنيا ومظاهرها، ممن يقولون آمنا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، وهؤلاء لم تسلم منهم دعوة، ولم يخل منهم مجتمع، حتى مجتمع المدينة في عصر النبوة.

فمن زعم أن مجتمع الإخوان مجتمع مبرأ من العيوب، نظيف مائة في المائة، فقد جهل الإخوان، وجهل الواقع، وجهل التاريخ.

غاية ما نقوله: أن الاخوان المسلمين في مجموعهم، كانوا يمثلون الصفوة من أبناء هذه الأمة، تحرر عقول، وطهارة قلوب، وزكاة أنفس ، واستقامة أخلاق، ونظافة سلوك، وحماساً لدين الله، وحباً لخير الناس، وغيرة على الإسلام، وعملاً على استعادة مجده، وتحكيم شرعه، وسيادة أمته.

بيد أننا نقول بجوار ذلك: إن الوسائل والمناهج التي اتخذها الإخوان للتربية والتكوين، منذ خمسين عاماً، قد آتت أُكلها، وأنتجت ثمراتها سنين عديدة، ولكن آن الأوان لإعادة النظر فيها، على ضوء الممارسة والتجربة الطويلة، فقد تطعم أو تطور أو تغير.

وليس مضي نصف قرن من الزمان بالأمر الهين، فقد تبدلت أوضاع ، وتجددت أفكار، وتحولت قيم، في منطقتنا وفي العالم كله.

وليس من المعقول أن يبقى كل قديم على قدمه، في وسط عالم سريع التغير. والإسلام إنما يعرف الثبات في الأهداف والغايات ، ويعرف المرونة والتطور في الوسائل والآلات.

﴿ وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت واليه أنيب﴾ [١].

* * *

---

(١) هود: آية ٨٨.

محتويات الكتاب

